دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

العنوان:	علم الأخلاق بين المبدأ و التطبيق من منظور الأصول الإسلامية للتربية
المصدر:	دراسات عربية في التربية وعلم النفس
الناشر:	رابطة التربويين العرب
المؤلف الرئيسي:	النعمان، مأمون صالح
المجلد/العدد:	ع 45, ج 2
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	2014
الشهر:	يناير
الصفحات:	73 - 126
رقم MD:	481639
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
قواعد المعلومات:	EduSearch
مواضيع:	علم الأخلاق ، الفلاسفة الغربيون، الشريعة الإسلامية ، التربية الإسلامية
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/481639

© 2021 دار المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو دار المنظومة.

البحث الثاني

"علم الأخلاق بين المبدأ والتطبيق من منظور الأصول الإسلامية للتربية"

إعداد:

د/ مأمون بن صالح بن محمد النعمان

الأستاذ المساعد بقسم أصول التربية

كلية التربية جامعة طيبة بالمدينة المنورة

"علم الأخلاق بين المبدأ والتطبيق من منظور الأصول الإسلامية للتربية"

د/ مأمون بن صالح بن محمد النعمان

• **مستخلص الدراسة**:

كثيرون الذين كتبوا في علم الأخلاق قديماً وحديثاً، والباعث على هذه الدراسة أن يساهم الباحث مع الآخرين بدراسة علمية يتوخى أن تكون دافعاً للالتزام والتطبيق، فبدأ بتمهيد يعرف فيه بعلم الأخلاق وأهميته ومنزلته عند الله وعند الراشدين من الناس، لتصبح هيئة راسخة في النفس، تصدر عنها الأفعال بسهولة ويسر، من غير فكر ولا روية، أي قوة راسخة في الإرادة، تنزع بها على اختيار ما هو خير وصلاح (إن كان الخلق حميدا) أو إلى اختيار ما هو شر وجور (إن كان الخلق ذميما). وتناول الباحث موضوع علم الأخلاق وأنه يتعلق بالأعمال الإرادية للإنسان، وأن علم الأخلاق ينقسم إلى نظري وعملي، وتساءل الباحث هل يعتبر علم الأخلاق وسيلة تامة في التربية الخلقية؟ وما هي الفائدة التي نرتجيها والغاية التي نبتغيها من هذا النوع من الدراسة العلمية لعلم الأخلاق؟ أجاب الباحث بالأدلة الدامغة أن هذا النوع من الدراسة العلمية لعلم الأخلاق هو ضرورة الحياة العملية، عند كل حركة أو سكون، وعند كل هم بفعل أو قول أو نية، وأن دراسة الأخلاق وسيلة ناجحة من وسائل التربية والتهذيب، لأن البحث في الفضائل وحسن عاقبتها، والتعرف على الرذائل وسوء مغبتها، ودراسة نماذج للمثل الأعلى من أهل الفضيلة في حياتنا، والأسوة الحسنة في تاريخنا، كل ذلك يستهوي الدارس ويغريه بالتحلي بالفضيلة والتخلي عن الرذيلة، ولا ينكر أحد ما لقوة الإغراء والاستهواء من أثر كبير، وأن دراسة الأخلاق تكسب صاحبها الدقة في تقدير الأعمال الأخلاقية، والإصابة في الحكم عليها، بعد أن وقف على معاني الخير والشر وما إليها، وعرف المقاييس الأخلاقية التي تقاس بها الأعمال المختلفة. ولخص الغاية من دراسة الأخلاق بأن: دراسة علم الأخلاق تكسب صاحبها القدرة على تمحيص الأعمال ونقدها وتقديرها حق قدرها، دون أن يخضع في حكمه إلى إلف أو عادة. (تقوية الضمير). وبها تقوى الإرادة على عمل الخير وسلوك السنن القويم، وتنشط العزيمة للمضي في سبيل الفضيلة واتخاذها نبراسا في أعمالها. (تقوية الإرادة). ومع أن دراسة الأخلاق وسيلة ناجحة للتربية والتهذيب، إلا أنها مع ذلك لا يمكن أن تجعل جميع الناس أخيارا، لأن ذلك يتوقف على عوامل متعددة منها: الوراثة، والتنشئة الاجتماعية، والاستعداد الشخصي.. ولكن كفاها فضلا أنها تهدينا على الصراط المستقيم. ويريد الباحث أن يؤكد فكرة طالما احتدم الجدل حولها وهي أن الأخلاق لا تورث بل تكتسب، وأن الطفل يولد على الفطرة السوية، أي الخلقة السوية، وهي (السلامة)، أي يولد صفحة بيضاء، سليما من الأديان والأخلاق والتربية والتعليم، وعنده القابلية للتلقي، فلا يرث ما سبق ذكره وإنما يكتسبه عن طريق (التنشئة الاجتماعية)، وفي هذا بيان هام في إمكانية التغيير، فكما اكتسبها يمكن تغييرها وترويضها وبين الباحث أهم الفوارق الجوهرية بين الأخلاق الفلسفية والأخلاق الدينية والضمير أو الحس الأخلاقي أو القلب وتعريفه ووجوده ودوره ومراحل عمله، وأحكامه ومراتبه وعوامل تقويته وإضعافه وعوامل إفساده ،ومنهج الإسلام في تربية الضمير وتزكية النفس وموقفه من الدوافع النفسية، وموقف أعداء الإسلام من الأخلاق الإسلامية، ثم الخاتمة في بيان علاقة علم الأخلاق بالتربية. والله الموفق.

Abstract

Many of those who wrote in the science of morality, past and present, and the motive for this study can contribute researcher with others studying the scientific envisaged

to be a motivation for the commitment and application, began paving knows the science of morality and its importance and stature with God, and when adult people, to become the well- established in the arts, issued by the acts easily and conveniently, without thought or deliberately, any well-established in the will power, tend to choose what is good and Salah (the was benign creation) or to chosse what is evil and Gore (if creation Zmama) The researcher addressed the theme of ethics and it relates to the voluntary work of man, and that ethics is divided into theoretical and practical, and wondered Researcher Is Ethics way full in congenital education? What are interest Nrtjeha by the end that Neptgaha of this kind of scientific study of ethics? Answered researcher evidence irrefutable that this kind of scientific study of ethics is a necessity of life process, when every movement or stillness, When all they act or say or faith, and that the study of ethics and successful way of the means of education and discipline, because the search in the virtues and good Consequence, and to identify the vices and bad Mgbtha, study models, such as the top of the people of virtue in our lives, and showing a lead themselves good in our history, every so impressed learner and tempted outward appearances of virtue and abandon vice, does not deny one the force of temptation and Alasthua of a significant impact, and that the study of ethics earn its owner accuracy in estimating ethical business, judged by injury, after a stop on the meaning of geed and evil, etc., and knew the ethical standards that are measured by different business. Summed up the purpose of the study of ethics that: 1 Study Ethics owner the ability to earn Business scrutiny and criticism and appreciation of right, without equivalents are subject to a thousand or a habit. (Strengthening of conscience). 2 and strengthens the will to do good and conduct True Sunan and active determination to move for the sake of virtue and taken a beacon in their work. (Strengthening the will). Although the study of ethics and successful way of breeding and cultivation, but it nevertheless can not make all people Okhiara, because it depends on several factors including: genetics, socialization, and personal preparedness.. But It is enough as well they Guides to the straight path. And wants to researcher to confirm the idea as long as heated controversy around is that morality is not inherited but is gaining, and that child is born on instinct normal, any texture normal, a (safety), which generates a blank page, a sound of religions and ethics and education, and has a capability to receive, not inherits the foregoing, but acquired through socialization, and this is an important statement in the possibility of change, as he gained can be changed and tamed and between the researcher most important differences core between ethics philosophical and religious morality and conscience or moral sense or heart and its definition and existence, role and stages of his work, and its provisions and steps factors strengthen and weaken factors Corruption, and the methodology of Islam in the education of conscience and Islam self and his motives psychological, and the position of the enemies of Islam of Islamic morality, then Conclusion in a statement relationship ethics education. And God bless.

- **مقدمة**:
- **تعريف علم الأخلاق:**

الأخلاق: جمع خلق، قال ابن منظور (د.ت): "والخلق الخليقة أعني الطبيعة. وفي التنزيل: (وإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ (4)) (سورة القلم)، والجمع أخلاق، لا يكسر على غير ذلك... والخلق والخلق: السجية. وفي الحديث: (ليس شيء في الميزان أثقل من حسن الخلق) (رواه الترمذي، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة: رقم 876)، والخلق، بضم اللام وسكونها: وهو الدين والطبع والسجية، وحقيقته أنه لصورة الإنسان الباطنة وهي نفسه وأوصافها ومعانيها المختصة بها بمنزلة الخلق لصورته الظاهرة وأوصافها ومعانيها، ولهما أوصاف حسنة وقبيحة، والثواب والعقاب يتعلقان بأوصاف الصورة الباطنة أكثر مما يتعلقان بأوصاف الصورة الظاهرة، ولهذا تكررت الأحاديث في مدح حسن الخلق في غير موضع كقوله: (أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا) (رواه أحمد وأصحاب السنن، وصححه الألباني في السلسة الصحيحة: رقم 284)، وقوله: (بعثت لأتمم مكارم الأخلاق) (رواه البيهقي في السنن الكبرى: ج10، ص192، وأورده الهيثمي في الزوائد بلفظ: صالح الأخلاق وقال: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح: ج9، ص15)، وكذلك جاءت في ذم سوء الخلق أيضا أحاديث كثيرة..." (ج10، ص86- 87).

ويرجع معناه في اللغة العربية إلى معنى "العادة"، قال ابن منظور: "واشتقاق خليق وما أخلقه من الخلاقة، وهي التمرين؛ من ذلك أن تقول للذي قد ألف شيئا صار ذلك له خلقا أي مرن عليه، ومن ذلك الخلق الحسن" (ج10، ص91).

ومن أجل هذا عرفه بعض العلماء بأنه: "علم العادات" ولكنه تعريف يحتاج إلى الدقة؛ لأن علم الأخلاق لا يبحث في أعمال الناس الإرادية التي صارت "عادات وتقاليد" على اختلافها، وإنما يبحث في توجيهها الطريق السوي طبقاً لقواعده وقوانينه، وفي الحكم لها أو عليها، حسب مقاييس الخير التي يضعها.

ولما كانت "أعمال الإنسان الإرادية" هي مناط البحث والحكم الأخلاقي، عرفه بعض الباحثين بقوله: "الأخلاق: علم الإنسان"، ولكننا لا نرضى بهذا التعريف؛ لأنه يتسع حتى يتناول "العلوم الإنسانية" المتعددة، التي تتخذ الإنسان. من نواحيه المادية أو المعنوية. محورا لبحوثها.

ومن التعريفات التي ذكروها أنه: "علم الخير والإرشاد إليه"، لأن مبحث الخير هو الغاية التي يسعى إليها الخلق، وأنه "علم الخير والشر" لأنه يفصل معنى كل منهما ويميز بينهما، وأنه "دراسة الواجب والواجبات"، لأنه يعرفنا الواجب الذي ننزل على حكمه فيما نفعل ونترك، ويهدينا لواجباتنا نحو أنفسنا وغيرنا وخالقنا.

وهذه التعريفات كلها لا تكفي، لأن دراسة الخير والشر لا يغني عن دراسة الواجب الذي نسير على هديه، ولا عن معرفة الواجبات التي يجب علينا أن نقوم بها. ودراسة الواجب والواجبات كذلك لا تكفي لتحديد الأخلاق التي تبحث أيضا في الخير والشر، وماهية كل منهما، والمقاييس التي نريد بها الأعمال لبيان خيرها وشرها.

ولربما يصح أن نطلق على علم الأخلاق أنه علم المبادئ المستمدة من الكتاب والسنة، والقواعد التي تحمل مراعاتها المرء على فعل الخير وتجنب الشر، ويصل بالعمل بها للمثل الأعلى للحياة.

أو: علم القواعد الشرعية التي تسير عليها إرادة المرء الكامل في أعماله ليصل للمثل الأعلى للحياة. ذلك أن علم الأخلاق علم مثالي معياري، وهو لا يبحث في أعمال الناس على ما هي عليه في الواقع، لأنه ليس علما وصفيا كعلم

النفس مثلا؛ وإنما يبحث في أعمال الناس على ما يجب أن تكون عليه، أي في الحياة التي يجب أن يحيوها ليحققوا ما خلقوا له من الكمال.

وعلم الأخلاق لا يبحث في الأعمال الإنسانية من حيث القوانين التي تجري على سننها، فذلك دور العلوم الطبيعية، ولا من حيث إقرار الجماعة التي يعيش المرء بنيها، أو إهدارها إياها، فذلك بحث القانون.. ولا من ناحية ما رتب عليها من ثواب أو عقاب في الدنيا والآخرة، فذلك بحث العلوم الدينية؛ وإنما يبحث علم الأخلاق في أعمال الإنسان الإرادية من ناحية توجيهها إلى ما يحقق سعادته في الدنيا والآخرة، ومن ناحية مطابقتها للخير أو الشر، وفي توضيح معنى كل منهما، من وجهة نظر الشرع، فهما شرعيان وليسا عقليين. وهو بهذا يهدينا سواء السبيل، ويرشدنا إلى الغاية التي يجب أن نقصدها من أعمالنا. (جاد المولى: ج1، ص9).

قال ابن مسكويه (ت/421هـ) في مقدمة كتابه تهذيب الأخلاق: "غرضنا في هذا الكتاب أن نحصل لأنفسنا خلقا تصدر به عنا الأفعال كلها جملية، وتكون مع ذلك سهلة علينا، لا كلفة فيها ولا مشقة" ويقول معرفا الخلق: "الخلق حال للنفس داعية لها إلى أفعالها من غير فكر ولا روية" (ص10). وزاد الغزالي (ت/505هـ) هذا التعريف بسطا في كتابه الإحياء 1400هـ فقال: "يقال فلان حسن الخلق والخلق، أي حسن الظاهر والباطن.. فالخلق عبارة عن هيئة راسخة في النفس، تصدر عنها الأفعال بسهولة ويسر، من غير فكر ولا روية" (مجلد3، ج8، ص96).

- **الخلق إذن: هيئة أو صفة النفس:**

غير أن للنفس قوى مختلفة، ووظائف متنوعة، فهناك ملكات الإدراك والتفكير والحكم والتخيل، والتذكر، وهناك الوجدانات والانفعالات، وهناك الغرائز والنزعات.. فإذا كانت هذه القوى النفسية كلها تصدر عنها آثارها في سهولة ويسر، هل يسوغ لنا أن نسمي شيئا منها خلقا؟ ..كلا ....

نحن بحاجة إذن: إلى مزيد من إيضاح وتحديد، تتميز به حقيقة المقصود من هذه التسمية، وينجلي به الإبهام الذي تنطوي عليه التعريفات السابقة.

ونبادر فنقول: إن الخلق ليس صفة للنفس في جملتها، ولكن في جانب معين من جوانبها، وليس هذا الجانب هو جانب العقل والمعرفة، ولا جانب الشعور والعاطفة، وإنما هو جانب القصد والإرادة. ونضيف إلى هذا التقييد تقييدا آخر فنقول: إن الخلق يتعلق بنوع خاص من الأهداف الإرادية، وهو تلك الأهداف التي ينشأ عن اختيارها وصف يعود إلى النفس بأنها خيرة أو شريرة، ومن هاتين الخاصيتين نستطيع أن ننظم التعريف التالي: الخلق هو قوة راسخة في الإرادة وتنزع بها إلى اختيار ما هو خير وصلاح (إن كان الخلق حميدا) أو إلى اختيار ما هو شر وجور (إن كان الخلق ذميماً).

هكذا تتميز الحقيقة الخلقية عما عداها من الصفات النفسية: ألا ترى أن جودة الذاكرة أو ضعفها، وسلامة الذوق أو سقمه، وبراعة الخيال أو تبذله، وحدة الذهن أو تبلده، لا مدخل لها في موازين الأخلاق ولا يسري منها الحكم على صاحبها بأنه بر أو فاجر، تقي أو آثم؟ نعم إذا استعملت هذه الملكات قصداً أو عمداً، بنية إصلاح أو إفساد كان هذا الاستعمال نفسه داخلا تحت سلطان القانون الأخلاقي من حيث هو عمل الإرادة، لا من وجه آخر.

ثم ألا ترى أن من الأعمال الإرادية نفسها طائفة يستوي فعلها وتركها، فتدخل بذلك في نطاق المباحات، بحيث لا يترتب على فعلها مدح ولا ذم، ولا يقال لصاحبها إنه أحسن أو اساء؟ فهي خارجة أيضا عن موضوع البحث. وكذلك الأعمال الإرادية التي يترتب عليها مدح أو ذم، بمعناهما الأدبي أو الفني، كإجادة البيان، وإتقان التصوير، أو إساءتهما، فهنالك يكون المدح والقدح، والإحسان والإساءة، أحكاما تشابه في صورتها الأحكام الأخلاقية، ولكنها في المعنى ليست منها بسبيل، لأن الذي لا يحسن التعبير أو التصوير لا يقال إنه آثم أو شرير.

هذا وينبغي ألا يشتبه علينا الفرق بين الخلق والسلوك، فالخلق كما قلنا أمر معنوي، وهو صفة النفس وسجيتها، أما السلوك فهو أسلوب الأعمال ونهجها وعادتها، وما هو إلا مظهر الخلق ومرآته ودليله.

وأنه لكي تكون الأفعال علامة صحيحة على خلق صاحبها؛ لابد أن يجتمع فيها عنصران:

(أحدهما) أن تتكرر الأفعال على نسق معين حتى تكون عادة مستقرة، وحتى تدل على قوة راسخة ونزعة ثابتة إلى هذه الأفعال، فإن الذي يدل على خلق المرء هو جملة تصرفاته في عامة الأوقات والأحوال المختلفة لا في النادر منها.

(الثاني) أن تقوم الأمارات على أن هذه الأفعال صادرة بطريقة انبعاثية عن النفس، وليست أثرا لأسباب خارجية، من الخوف أو الرجاء أو الحياة أو الرياء أو نحوها، مما يجعل صدور الأعمال تكلفا وتصنعا على خلاف سجية صاحبها، ويجعلنا نحكم بأن خلقه الحقيقي على النقيض مما يوحي به ظاهر هذه الافعال.

وكما تتجلي العادات المستقرة في ثوب إيجابي، قد تبدو لنا يف صورة سلبية. وهنا أيضا ينبغي أن نكون في يقظة وحذر عند إصدار أحكامنا، إذ قد يخفي علينا الخلق الحقيقي لعدم البواعث والأسباب التي تقتضي ظهوره، كالفقير الذي لا يجد ما ينفقه مع أن في نفسه نزعة البذل والسخاء، فلا نحكم عليه بالبخل لمجرد عدم إنفاقه، وكالشره الذي لا يجد ما يتناوله فلا نحكم عليه بالعفة حتى تتهيأ الملابسات التي تبدي لنا كامن سجيته وشيمته.

سيقول قائل: إذا كان خلق الإنسان كما ذكرتم هو مزاج روحه، وهيئة نفسه الراسخة فيها على غرار الصورة الخلقية لبدنه، ألا يكون ذلك اعترافا من أول الأمر بأن الأخلاق فطرية دائماً، لا سبيل إلى تغيير ما وجد منها، ولا إلى اكتساب ما ليس بحاصل فيها. وهذا الاعتراف ينطبق بلا ريب على بعض وجوه النظر في المسألة، ولكنه لا يساير جملة المذاهب فيها. فإذ سألتموه أصبح على الأخلاق وليس له موضوع متفق عليه، مسلم الثبوت في نفسه؟

نقول: كلا إن التعريفات المذكورة للخلق لا تنطوي على الاعتراف بشيء من هذه اللوازم، ذلك أننا نسمي خلقا: كل قوة إرادية راسخة، نزاعة إلى الخير أو الشر، سواء أكان هذا الرسوخ في كل أحواله من عمل الفطرة والجبلة ليس غير، كما يقول أهل الجبر، أم كان يحصل تارة بالجبلة والغريزة، وتارة بالكسب والرياضة، كما يقول غيرهم. فهاهنا إذن: مذهبان، يجمل بنا تعرفهما وبسط وجهه نظرهما:

فأما غلاة أهل الجبر، فهذا نموذج من أقوالهم:

يقول (آرثر شوبنهاور Arthur Schopenhauer) الفيلسوف الألماني (ت/1860م) المعروف بفلسفته التشاؤمية: يولد الناس أخياراً أو أشراراً، كما يولد الحمل وديعاً والنمر مفترساً، وليس لعلم الأخلاق إلا أن يصف سيرة الناس وعوائدهم، كما يصف التاريخ الطبيعي حياة الحيوان.

ويقول (إيمانويل كانت Immanuel Kant) الفيلسوف الألماني (ت/ 1804م): إن الذي يساعد موقف الإنسان في ظرف معين، ويعرف سوابق تصرفاته في مثل هذا الموقف؛ يستطيع أن يتنبأ تنبؤا صادقا بما سيفعله في هذا الظرف المعين، كما يتنبأ العالم الفلكي بكسوف الشمس وخسوف القمر في ساعة محددة...

ويقول (باروخ سبينوزا Baruch Spinoza) الفيلسوف الهولندي (ت/1677م): إن أفعال الناس كغيرها من سائر الظواهر الطبيعية، تحدث ويمكن استنتاجها بالضرورة المنطقية الهندسية، كما يستنتج من طبيعة المثلث أن زواياه الثلاث تساوي زاويتين قائمتين.

ويقول (لوسيان ليفي بريل Lucien Levy Brill) الفيلسوف الفرنسي (ت/1939م): إن ميولنا الحسنة أو القبيحة التي نجيء بها إلى هذا العالم عند ولادتنا هي طبيعتنا، فكيف نكون مسئولين عن طبيعة هي ليست من عملنا، أو على الأقل ليست من عملنا الشعوري الاختياري؟

ويقول (ديفيد هيوم David Hume) الفيلسوف الانجليزي (ت/ 1776م): إن شعورنا بالحرية ليس إلا وهماً وخداعاً.

أولئك فريق من فلاسفة أوروبا، غلب على عصرهم البحث في القوى المادية وطبائعها، ورأوا ما فيها من قوانين علمية ثابتة، فأرادوا أن يبسطوا نتائجها على سائر العلوم، حتى الاجتماعية والأخلاقية، فهم لذلك يصورون لنا الإرادة الانسانية سجينة في نطاق حديدي من الغرائز والطبائع، ويصورن لنا البشرية كلها عاجزة عن التحول والتطور، ففيم إذن كان إنزال الكتب وإرسال الرسل؟ وفيم إذن وضعت الشرائع والقوانين؟ وفيم كان ويكون عمل المؤدبين والمربيين؟ ألا يكون ذلك كله عناء بغير جدوى؟ أولا تكون دراسة الأخلاق نفسها ملهاة أو شبة ملهاة؟

أما أنصار الحرية والتقدم فإنهم لا يرون في هذه المقالات جميعها إلا ضروباً من الدعوة المجردة، أو السفسطة المموهة، الخلط بين موضوع الأخلاق وغيره، كما سنبينه فيما يلي: وأول ما نلاحظه على هذه الأقاويل شذوذها على إجماع المفكرين الأسبقين، فإن هؤلاء المفكرين وإن اختلفوا في شأن الفطرة الإنسانية على مذاهب ثلاثة. سنبينها لاحقا. إلا أنهم من جهة جعلوا هذه الفطرة عامة في جنس البشر، فلم يزعموا أنها خيرة في البعض شريرة في البعض، بل هي إما هذا وإما ذاك، وإما كلاهما معا، وفي الجميع.

ومن جهة أخرى فإنهم اتفقوا ثلاثتهم على قبول هذه الفطرة للتغير والتبدل وذلك إما لامتزاج هذه الفطرة وتركبها (كما في المذهب الثالث)، وإما لمرونتها وقبولها للانقلاب (كما في المذهبين الأوليين).

واختلاف المفكرين في شأن الفطرة الإنسانية على مذاهب ثلاثة:

(أحدها): أن الإنسان خير بطبعه، والشر عارض له، وهو مذهب المتفائلين أمثال (جان جاك روسو Jean-Jacques Rousseau) (ت/ 1778م)، وينسب إلى سقراط والرواقين.

(والثاني): أن الإنسان شرير بطبعه، والخير طارئ عليه، وهو مذهب المتشائمين، كالبوذية وأشباههم، ولعله من هؤلاء سرى إلى الكنيسة المسيحية، حيث ترى أن الإنسان منذ خطيئة آدم قد انقلب شريراً لا حيلة في إصلاحه نفسه، ولا غنى له عن منقذ ومخلص إلهي.. تلك النظرية التي بنوا عليها عقيدة الفداء وما يتبعها.

والمذهب (الثالث): أن الإنسان خلق مستعداً للخير والشر جميعاً، وهو قول جمهور الفلاسفة وعلماء النفس والتربية في هذا العصر.

وهو مذهب وسط جامع سبقهم إلى تقريره الإمامان الغزالي (ت/ 505هـ) وابن خلدون (ت/808 هـ)، غير أنهما يضيفان إليه أن الإنسان خلق إلى الخير أميل منه إلى الشر.

وقد فصلا مذهبهما تفصيلاً يتبين منه وجه التوفيق بين المذاهب كلها، وذلك أن من نظر إلى ما في الإنسان من العنصر الروحي الملكي (كما في عبارة الغزالي) أو عنصر النفس الناطقة (كما في تعبير ابن خلدون) قال إنه خير بطبعه، ومن نظر إلى العنصر الجثماني أو الحيواني قال بعكس القول الأول، ومن نظر إليهما معا. كما هو الأصوب. قال بالاستعداد للأمرين جميعا.

ولا يفوتنا هنا أن نبين اتجاه النصوص الإسلامية في هذه القضية، وأن فيها ما يشهد لهذا المذهب الوسط، مذهب الاستعداد المزدوج: ففي القرآن الكريم في سورة الإنسان: (إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وإِمَّا كَفُورًا (3))، وفي سورة البلد: (وهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ (10))، وفي سورة الشمس: (ونَفْسٍ ومَا سَوَّاهَا (7) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وتَقْوَاهَا (8) قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (9) وقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا (10)).

بل فيها ما يشهد في الوقت نفسه أن هذه الفطرة المزدوجة أقرب في أصلها إلى السلامة والاستقامة: (لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (4)) (سورة التين)، (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ القَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (30)) (سورة الروم).

نعم إن هذين النصين الأخيرين واردان في عقيدة الحق، لا في إرادة الخير، ولا خفاء في أن الفطرة الأولى في المسألة الاعتقادية هي فطرة التوحيد، وأن عقائد الشرك والوثنية أعراض طارئة، بل أمراض متطفلة، من أثر الأتباع والمحاكاة، وأما الفطرة الأولى في الناحية العلمية فقد يكون من السائغ الحكم فيها بالخيرية على أصل النشأة أخذاً من آية (التقويم) المشار إليها آنفا. ولكن من الصعب تعميم هذا الحكم في الأجيال والطبقات والأفراد، ولا سيما إذا لاحظنا اختلاف عامل الوراثة وما قد ينقله من الطباع الحميدة أو الذميمة عن الآباء، ومهما يكن من أمر فإن اسبقية أحد الطبعين إلى الوجود لا يعني مطلقاً عدم قابليته للتبدل إلى أحسن أو أسوأ، خلافا لما يزعمه أعداء التربية والتعليم.

إن الطفل. ذكراً كان أم أنثي. يولد على الفطرة السوية، أي الخلقة السوية، أي (السلامة) أي سليماً، فلا يوصف بإيمان ولا بكفر، ولا بإسلام ولا نصرانية ولا بأي دين من الأديان أو الملل أو النحل، كما أنه يولد سليماً من الأخلاق سواء كانت حسنة أم قبيحة، كما أن يولد سليماً من التربية والتعليم، إذن يولد الطفل صفحة بيضاء، عنده القابلية للتلقي وأن تسطر فيه وتلقنه ما تريد، فلا يرث شيئاً من الأديان أو الأخلاق أو التربية والتعليم عن أبويه أو أجداده، فهي لا تورث وإنما تكتسب، أما الصفات الجسمية فهي التي تورث عن طريق (الصفات الوراثية) أو ما يسمي (الكروموزومات)، قال تعالي في سورة النحل: (واللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ والأَبْصَارَ والأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (78)). قال ابن الأثير الجزري (ت/606هـ) في كتابه جامع الأصول 1403هـ: "الفطرة المذكورة في هذا الحديث اختلف العلماء فيها واضطربوا في معناها، وذهبوا في ذلك مذاهب متباينة، وادعت كل فرقة منهم في ذلك ظاهر

آية أو ظاهر سنة، وسنبين ذلك كله ونوضحه ونذكر ما فيه من الآثار والأقوال عن السلف والخلف. (تفصيل ذلك في الكتاب المذكور، والمهم أو الخلاصة: أريد بالفطرة المذكورة في هذا الحديث الخلقة التي خلق عليها المولود في المعرفة بربه فكأنه قال كل مولود يولد على خلقة يعرف بها ربه إذا بلغ مبلغ المعرفة يريد خلقة مخالفة لخلقة البهائم... واحتجوا على أن الفطرة الخلقة والفاطر الخالق بقوله عز وجل (فَاطِرِ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ) (سورة فاطر: آية 1) يعني خالقهن. وقوله: (ومَا لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي) (سورة يس: آية 22) يعني خلقني وما كان مثله من أي القرآن، وأنكورا أ، يكون المولود فطر على كفر أو إيمان أو معرفة أو إنكار.. وقالوا إنما يولد المولود على السلامة في الأغلب خلقة وبنية وطبعاً ليس معها إيمان ولا كفر ولا إنكار ولا معرفة، ثم يعتقدون الإيمان أو الكفر بعد إذ ميزوا.. واحتجوا بقوله في الحديث: (كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء. يعني سالمة. هل تحسون فيها من جدعاء) يعني مقطوعة الأذن.. فمثل قلوب بني آدم بالبهائم لأنها تولد كاملة ا لخلق ليس فيها نقصان ولا آفة ثم تقطع آذانها بعد وتشق وتثقب أنوفها.. وكذلك قلوب الأطفال في حين ولادتهم سالمة ليس لهم كفر ولا إيمان ولا معرفة ولا إنكار..

قالوا: ولو كان الأطفال قد فطروا على شيء من الكفر أو الإيمان في أولية أمرهم ما انتقلوا عنه أبدا كما لا ينتقلون عن خلقتهم وقد نجدهم يؤمنون ثم يكفرون ويكفرون ثم يؤمنون. قالوا: ويستحيل في المعقول أن يكون الطفل في حين ولادته يعقل كفراً أو إيماناً لأن الله عزل وجل أخرجهم من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئا.

قال أبو عمر: هذا القول أصح ما قيل في معنى الفطرة التي يولد الناس عليها والله أعلم، وذلك أن الفطرة السلامة والاستقامة، بدليل حديث عياض بن حمار رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم حاكيا عن ربه عز وجل: (إني خلقت عبادي حنفاء...) يعني على استقامة وسلامة، والحنيف في كلام العرب: المستقيم السالم" (ج:3، ص: 101 بتصرف قليل).

2) فإذا سلمنا أن قطرة الخير والشر ليست موزعة على السواء في البشر، واعترفنا بأن بعض الناس يولد خيراً بطبعه، وبعضهم يولد شريراً بطبعه، فإننا نفهم من هذه الأسبقية في ظهور أحد الطبعين منذ الطفولة، وأن، يكون التحول إلى الطبع المقابل له أصعب وأبطأ، لتوقفه على عوامل خارجية جديدة، ولكن أي دليل يدل على أن للطبع البدائي الذي يولد عليه الحيوان، بله الإنسان، يصل إلى ذلك الحد الذي وصفوه لنا من الجمود والاستعصاء على كل تحويل وتبديل؟..

وقد يستأنس لهذا التنويع في أصل الجبلة بما جاء في الصحيحين: (الناس معادن خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا) وفي رواية عند البزار في مسنده: (الناس معادن كمعادن الذهب والفضة فخيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا)، وفي صحيح مسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال للأشج أشج عبد القيس رضي الله عنه: (إن فيك خصلتين يحبهما الله: الحلم، والأناة) وفي رواية أحمد والبيهقي: عن أم أبان بنت الوازع بن زارع، عن جدها زارع، وكان في وفد عبد القيس قال: فجعلنا نتبادر من رواحلنا، فنقبل يد رسول الله صلى الله عليه وسلم ورجله، ثم نزل

الأشج فعقل راحلته وأخرج عيبته ففتحها وأخرج ثوبين أبيضين من ثيابه فلبسهما ثم أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: (يا أشج إن فيك خصلتين يحبهما الله ورسوله: الحلم والإناة، قال: يا رسول الله أنا أتخلق بهما أم الله جبلني عليهما؟ قال: بل جبلك الله عليهما، قال: الحمد لله الذي جبلني على خلتين يحبهما الله ورسوله) (السنن الكبرى: ج7، ص164، رقم 13587).

كما أنه يمكن تأييده بالتجارب النفسية المتكررة التي ثبت بها اختلاف طبائع الأطفال منذ نشأتهم، وظهور بعضهم مبكراً بطابع الفضيلة، وبعضهم بطابع الرذيلة والشذوذ الخلقي، وبعضهم بطابع عادي غير متميز في أحد الجانبين، ولكن ليس في النصوص ولا في التجارب ما يدل على جمود هذه الطباع واستعصائها على التهذيب.

يجيب الجامدون المتشائمون، وهم الذين يسميهم الغزالي أهل البطالة والكسل، محتجين على دعواهم بحجتين (الأولى) مقايسة نظرية، وهي أنه كما لا يمكن لإنسان تحويل خلقته الظاهرية من الدمامة إلى الوسامة، كذلك لا يمكنه تغيير طبيعته الباطنة من الشرية إلى الخيرية، إذن: لا فرق بين فطرة وفطرة، كلاهما من صنع الله الذي لا تبديل لخلقه.

(الحجة الثانية) تجربة عملية، وهي أن كثيراً من أهل المجاهدة والرياضة حاولوا في أنفسهم تحطيم قوتي الشهوة والغضب، وإسكات غريزتي الأمل والألم، فباءوا بالفشل، وإذا كانت هذه الوسيلة الوحيدة لاكتساب الخلق الحميد وقد ثبت استحالتها، كانت غايتها محالة كذلك.

ونحن ندحض هاتين الحجتين، واحدة واحدة، على عكس ترتيبهما:

أما الحجة العملية فإن الدليل التجريبي قائم على عكس ما زعموا فيها، فقد وفق الإنسان في كل عصوره إلى نقل طباع الحيوان من النفور على الألف، ومن الصعوبة والحزونة إلى السلاسة والانقياد، ومن اعوجاج السير واضطرابه إلى اعتداله وانتظامه حتى أن الإنسان ليرقص الخيل، ويلاعب الطير، ويعلم الجوارح ألا تطعم مما تمسكه لربها وهي في أشد الحاجة إليه.. فإذا كان هذا هو الشأن في غرائز العجماوات، فكيف بالغرائز الإنسانية التي أثبت علم النفس المقارن أنها أسلس قياداً وأعظم مرونة، بسبب تنوعها وتعارضها وقبولها للمزج والتعديل بينها بترجيح بعضها على بعض.. ألا ترى غريزة المحافظة على الحياة يقابلها غرائز الحمية، وحب المحمدة والدفاع عن العشيرة، وكذلك غريزة الأثرة تلطفها غريزة المشاركة العاطفية في الألم والسرور وهكذا...

ولو سلمنا جدلاً استعصاء الطباع الإنسانية في أنفسها على المحو والإثبات، فإننا لا نسلم استعصاءها على التهذيب والتنظيم، إلا أننا ليس يلزمنا في تصحيح مذهبنا أن نثبت لأنفسنا سلطانا على قلب طباعنا وتحويل جرثومتها الأولى، بل يكفينا أن نثبت اقتدارنا على تعقيم هذه الجرثومة أو على إخصابها، ثم على تربيتها بعد ذلك وإهمالها، مثل ذلك مثل حبتي عنب وحنظل؛ فإنك لست ببالغ ولو حرصت أن تجعل العنب حنظلا أو الحنظل عنبا ولكنك تملك أن تضع إحدى الحبتين أو كلتيهما على صخرة جافة ملساء لا تغذيها تربة ولا يرويها ماء، فلا تعطيك زهرا ولا ثمرا، وتملك أن

تضعها في أرض طيبة تؤويها من الأعاصير، وتحميها من الحشرات والطفيليات، ثم تتعهدها بالماء والسماء، حتى تنبت لك النبات الذي تؤهلها له طبيعتها، ثم لا تزال تلاحقها، تقويما لأغصانها، وتهذيبا لأشواكها، وتسوية لها طولا أو عرضا على الشكل والمقدار الذي ترضاه لها، فكذلك الروح وما فيها من قابليات واستعدادات وسجايا وجبلات، لا تستطيع أن تبدل عناصرها تبديلا، ولكنك أهل أن تتعهد عناصر الخير فيها إمداداً بماء العلوم والمعارف، ورفدا بالعمل الصالح، وصقلا وجلاء بالندم على السقطات والزلات، وبما شئت من تزكية وتنمية، كما قال الله تعالى في سورة التوبة: (خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وتُزَكِّيهِم بِهَا وصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ واللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (103)).

وأنت أهل كذلك لأن تدع مرآتها يعلوها صدأ الجهل، وتغشاها عدوى خلطاء السوء، وتتراكم عليها أنقاص العادات الذميمة، كما قال تعالي في سورة المطففين: (كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ (14)).

وبالجملة فإنما يكون الجهاد الخلقي عبثاً في أحد افتراضين لا ثالث لهما أن تكون النفس الإنسانية قد خلقت خلقاً كاملاً مستجمعاً لكل أطوارها، أو أن تكون خلقت بتراء جامدة غير قابلة للكمال، أما هي كما قال الغزالي ناقصة بالفعل ولكنها منطوية على إمكانيات الكمال، قابلة بالقوة لما شاء الله من درجات الترقي والتدلي، فقد اتسع ميدان الجهاد أمام كل مجاهد.

وذلك كله مما توحي به الآيات القرآنية الكريمة حيث يقول الله تعالى في سورة الشمس: (ونَفْسٍ ومَا سَوَّاهَا (7) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وتَقْوَاهَا (8) قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (9) وقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا (10))، فجعل تسوية النفس من فعل البارئ المصور، ولكنه جعل تزكيتها أو تدسيتها من عمل الإنسان.

وهكذا تسقط حجة المعارضة بشقيها النظري والعملي.

ذلك أننا نقبل تحديهم لنا بالمقايسة على الخلقة البدنية، ونقول: إننا وإن لم نملك أن نغير طبيعة أبداننا وأن ننشئها خلقا آخر، فإننا نملك أن نعالجها من أمراضها، وأن نهذب شذوذها بتقليم الأظافر، وإزالة ما يغشاها من الشعث والغبار، وأن نجملها بما نشاء من الزينة الظاهرة، وأن رسالتنا في الجهاد الروحي لا تعدو هذا النمط.

وكذلك نقبل الحجة التجريبية ونقول: إننا ليس علينا أن نمحو من أنفسنا غريزتي الشهوة والغضب. كما زعم المجادل. كيف وهما أداتنا في الحياة، لاجتلاب نفعها، واستدفاع ضرها، فمثل غريزة التشهي والتمني كمثل كلب الصيد الذي تبعثه في طلب رزقك، ومثل غريزة الألم والغضب كمثل كلب الحراسة الذي تدفع به اللصوص والمعتدين عن نفسك وحريمك، فكما أنه ليس من الحكمة والرشد أن تقتل كلبيك، كذلك ليس من الحكمة والرشد أن تقتل غريزتي الغضب والشهوة فيك، ولكن عليك أن تعلم كلب صيدك ألا يختطف الطير الأليف المملوك، وأن تعلم كلب حراستك ألا ينبح في وجه الضيفان. وهكذا واجبك أن تنظم سير غرائزك إقداماً أو إحجاماً، على مقتضى قانون الشرع والعقل، وإذا كانت التجربة

القاصرة الناقصة قد فشلت في هذه المهمة فإن التجربة الصابرة المثابرة، التي لا يزيدها الإخفاق إلا معاودة وإلحاحاً وتشبثاً بالمثل العليا، وقد أثبتت دائماً نجاحها وانتصارها، تشهد بذلك سير الحكماء والمربين في أنفسهم وفي تلاميذهم.

وبعد: فإننا نلاحظ أن في دعوى المعارضة إحاطة وتعميماً في مقام كان حقه التفصيل والتقسيم. ذلك أن ههنا فصيلتين من السجايا:

- طباعاً قاصرة الأثر على نفسية صاحبها، بمعني أنها لا تهتف به إلى عمل حميد أو ذميم.

- وطباعاً حافزة له على فعل الخير أو الشر.

ولعل أكثر ما جربه المعترضون هو من قبيل الفصيلة الأولى. فهم إذا قالوا لنا مثلا: إن المرء قد يولد متفائلا أو متشائما، مرحاً أو كئيبا، ألمعي الذهن أو بطيء الإدراك، ذكورا أو شديد النسيان، متذوقاً للفن أو محروماً من حاسة الجمال، نزاعاً للانطواء كثير الإنزواء، أو ميالاً للخلطة نفوراً من الوحدة، وأنه لا حيلة له في تغيير هذه السجايا، قلنا:

وماذا يضيرنا هذا العجز إذا كانت الصفات المتقابلة لا تمنع أصحابها. في أي الطرفين فرضوا –أن يكونوا فضلاء أتقياء، مؤدين لواجباتهم نحو الخالق والمخلوق.

فهذه الفصيلة كلها لا صلة لها بقانون الأخلاق، ولا تنقص مذهب الجمهور فيه... وإنما الذي يتصل بموضوعنا من الطباع الإنسانية هو ما يكون منها إذا نزعة عملية نحو الفضيلة أو الرذيلة، كما لو قيل لنا إن صنفاً من الناس ينشأ منذ طفولته شجاعاً جريئاً، وصنفاً آخراً ينشأ جباناً متردداً رعديداً، وأن الرجل قد يولد سخياً أو شحيحاً، لين العريكة أو شكساً خشن الجانب، إلى نحو ذلك، وأن كل ضرب من هذه الأخلاق يوحي إلى إرادة صاحبه حتماً تنفيذ مقتضى جبلته.

فنقولها هنا أيضاً: يجب أن نفصل بين الإيحاء وقبول الإيحاء، فكل عمل الطبيعة والجبلة أنها تدعونا وتلح علينا أن نتخذ اتجاها معينا في سيرنا، ولكن في وسعنا نحن أن نلبي الدعاء وأن نرفض الرجاء، وما أحكم التعبير القرآني البليغ حين يقول: (إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِي (53)) (سورة يوسف) فلم يقل: لحاكمة بالسوء أو لملجئة إلى السوء، ولنستمع إلى قوله سبحانه في سورة إبراهيم حين يحكي محاجة الشيطان لأوليائه: (وقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وعَدَكُمْ وعْدَ الحَقِّ ووَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ومَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي ولُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ ومَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (22)). هكذا حصر كل سلطانه في مجرد الدعوة، وألقى عليهم المسؤولية بأنهم هم الذين استجابوا لتلك الدعوة. ذلك أن المسؤولية إنما تتقرر في الأعمال الإرادية والإرادة، وإن كانت جهازاً متصلاً بسائر الأجهزة النفسية. إلا أنها في الوقت نفسه منفصلة عنها. وبعبارة أخرى إنها متصلة بها اتصال استشارة وإنارة. وليس اتصال ائتمار وارتباط آلي ولا شبه آلي. فموقف الإرادة في استقلالها عن العواطف والنزعات، وعن الأفكار والذكريات، وغيرها مع ارتباطها بها في المجوعة النفسية، كموقف

القاضي في استقلاله بالنطق بالحكم، مع ارتباطه بجهاز العدالة كله، من اتهام وشهادة، وحجج ودفاع، أو كملك له بطانتان تصف له إحداهما الخير وتحببه فيه، وتزين له أخراهما السوء وتغريه به. والأمر في النهاية إليه.

وأخيراً فإننا نستطيع أن نتنزل مع هؤلاء الجبريين إلى النهاية، وأن نسلم جدلا كل المقدمات التي سبقت مناقشتها، فنسلم لهم أول كل شيء أن الناس ليسوا سواء في الجبلة العامة، وأن الطبيعة تؤهل كل طائفة منهم لناحية معينة من السلوك في الحياة، ثم نسلم لهم أن هذا الميل الطبيعي لا حيلة للمرء في نزعه ومحوه، ولا في تنظيم آثاره، ونسلم أخيراً أن هذا العجز لا يسري على الطباع العادية وحدها، بل على السجايا المتصلة بصميم السلوك الأخلاقي كذلك. غير أننا نلفت نظرهم بعد هذا كله إلى أنهم حين يتحدثون عن جمود الطباع واستعصائها إنما يتحدثون عن ذلك الطبع الذي يستنتج بالظن من العادة المستمرة للمرء في سلوكه، لا عن الطبع الحقيقي الكامن الدفين، الذي قد تغطيه طبقة سميكة من عوائدنا الشخصية أو الوراثية أو السارية إلينا من عدوى المجتمع، حتى أنه ليخفى أمره على الناقد البصير، بل قد يخفي على المرء نفسه كنه نزعاته وميوله، وينخدع في حكمه على استعداداته، إما لقلة عنايته بتحليلها، وإما لفقد الفرص المواتية لظهورها، كما يجهل الزوج الذي لم يرزق ولداً قط مبلغ حنان الأبوة ورأفتها، وكما يجهل طالب العلم كنه ميوله الأدبية أو العلمية في فترة طويلة من سني دراسته، وكما يجهل الجندي مدى قدرته على سياسة الجماعة وتصريف أمورها لأنه يتولي أمر القيادة يوماً ما، فإذا تغيرت ظروف كل واحد منهم أشرقت فيه صفات وملكات جديدة، وعرف من نفسه ما كان ينكره منها، بل رب كلمة نصح تصادف القلب، ورب حادث مفاجئ يصدم الشعور، فإذا مجرى الحياة كلها قد تغير في طرفة عين، وإذا المعوج يعود مستقيماً، والفاجر العربيد تقياً نقياً.

وجملة القول في هذا الوجه: أننا سلمنا أن الرياضة والمعالجة وتقليب وجوه التجارب لا تخلق طبعاً جديداً، فإنها على الأقل لا يلتبس عليك الفرق بين هذه التجربة الخلقية وبين التجربة النفسية.

فهذه الأخيرة تنقب عن ظاهرة موجودة مختفية لتعرف ما هو كائن، وتلك تنقب عن ظاهرة يجب أن تكون لتحول إليها ما هو كائن.

وهكذا يتبين لنا أن الذي يعتمد على ظواهر السلوك وعلى مجاري العادات في حكمه بعدم تطور الطباع؛ إنما يعتمد على جرف هار، وأن مثله كمثل من يحكم على الصحراء القاحلة الجرداء بأنها لا تقبل الإنبات، دون أن يجرب سقيها أو حرثها أو معالجتها بسائر ضروب المعالجة.

فعلة ما يتوهمه الناس من جمود الطباع هو هذا اليأس، وهو فقد الثقة بالنفس، ومفتاح الخير كله في العمل والأمل، واليقظة والجد، والحرص على الإصلاح والتقدم، وتلك هي الوصية الذهبية التي أوصانا بها صاحب الرسالة صلى الله عليه وسلم حين يقول: (احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز) (رواه مسلم)، وتلك هي حقيقة الجهاد الأعظم الذي قال فيه الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم: (المجاهد من جاهد نفسه) (رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح).

وقد وعد الله الذين يحافظون على عمل الصالحات بأن يصير الصلاح ملكة لهم، فقال تعالي في سورة العنكبوت: (وَالَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ (9))، كما وعد المجاهدين لأنفسهم بإبلاغهم غايتهم من الهداية، فقال جل شأنه في سورة العنكبوت: (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ المُحْسِنِينَ (69))، وهي آية مكية لا تعرف الكفاح بالسيف، ولكن بالصبر والقناعة، وقوة الإرادة، وتحدي المغريات والمثيرات، والصمود أمامها كالصخرة الراسية أمام الرياح العاتية، وقد جاء في الحديث الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: (عليكم بالصدق فإن اصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقا، وإياكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وما يزال الرجل يكذب ويتحري الكذب حتى يكتب عند الله كذابا) (رواه مسلم)، ومن أوضح الأحاديث الصحيحة في الدلالة على فضل الجلد والمثابرة وأثرهما في إزالة الرعونات الجبلية، وتكوين الخلق الحميد المضاد لها، قوله صلى الله عليه وسلم: (ومن يستعفف يعفه الله، ومن يستغن يغنه الله، ومن يصبر يصبره الله) (متفق عليه).

- **موضوع علم الأخلاق:**

موضوع كل علم هو مباحثه التي يعنى بدراستها، وعلم الأخلاق في بحوثه يستهدف مسائل متعددة هي التي تكون موضوعه، فهو يبحث في الخير والشر، ما هما؟ وما لا فرق بينهما؟ وما هو المعنى الذي يلاحظ في هذا العمل فيكون خيراً، وفي ذلك فيكون شراً؟ والضمير الأخلاقي الذي نقف به على الخير والشر ما هو؟ وهل هو في حكمه على الأعمال قاض معصوم، وهاد لا يضل؟ وما هو الحق والواجب؟ وما هي الواجبات المختلفة؟ وما هو المثل الأعلى الذي يجب أن نتجه جميعاً لتحقيقه؟ وأخيرا: ما هي القواعد التي تؤدي رعايتها للخلقية المثالية الكاملة؟

ويتبين من ذلك أن موضوع علم الأخلاق هو "الأعمال الإرادية للإنسان" (أي الصادرة عن تفكير وإرادة) من هذه النواحي كلها.

بخلاف الأعمال غير الإرادية (وهي التي تصدر عن المرء، ولا دخل لإرادته ولا لتفكيره فيها)، كالأعمال الآلية، وهي التي تحدث والمرء نائم أو يقظان، مفكر أو غير مفكر، مثل أعمال الجهاز التنفسي والدوري والهضمي، والأعمال المنعكسة، وهي الناشئة عن سبب خارجي عن الجسم، مثل انقباض اليد عند وخزها، واختلاج العين عند الانتقال فجأة من ظلمه إلى نور، فإن هذه الأعمال كسابقتها، لا كسب للمرء فيها، ولا تتعلق إرادته بها، وعلم الأخلاق يرتب مسئولية خلقية على الأعمال، ولذلك فإن الأعمال غير الإرادية (آلية كانت أو منعكسة) لا تدخل في موضوعه لأنه لا يتدخل إلا حيث يكون القصد والإرادة. (أمين 1974م: ص13).

الأعمال المشتبهة: وهناك نوع من الأعمال قد يشتبه الحكم فيها، لأنها تشبه الأفعال الإرادية من ناحية، وتشبه غير الإرادية من ناحية أخرى، وعلى ذلك: أيتناولها علم الأخلاق فيصف بعضها بالخير وبعضها بالشر، ويرتب مسئولية على صاحبها، أم يكون صاحبها بمنجاة من ذلك؟ ويتضح هذا المعني من الأمثلة الآتية:

- أعمال النائم: بعض الناس يأتي أعمالاً وهو نائم، كمن ينام ويترك المصباح مشتعلاً بجواره، ثم يأتي حركة لا يحس بها، تقلب المصباح وتحرق شيئاً، أو يقوم وهو نائم فيعثر بطفل بالدار فيصيب منه عضواً.

- أعمال الناسي: رجل تعود النسيان، وعلم باتفاق جماعة على قتل إنسان في موعد محدد، فاعتزم تنبيه المؤتمر به قبل الموعد ليحتاط لأمره، ولكنه أرجأ ذلك حتى نسي الأمر، فإذا الجريمة واقعة، دون أن يملك لها رداً.

- أعمال الغضوب: رجل يعلم من نفسه أنه يثور للبادرة تبدر من غيره، وإنه إذا ثار تملكه الغضب، وخرج عن وعيه، ومع علمه ذلك من نفسه ذهب لأحد المجالس التي هي مظنة لإثارة غضبه، فحدث ما توقع وأتى منكراً من الأعمال أو الأقوال.

فهذه الأعمال وأمثالها غير إرادية؛ فالنائم لم يتعمد إحراق أدوات المنزل، ولا إصابته عضو للطفل النائم بجواره، والناسي لم يقصد ترك الذي يدبر الشر لقتله دون تحذيره، والغضوب لم يرد المنكر الذي ارتكبه في سورة غضبه، ولهذا كان لكل منهم الاعتذار عن أعماله بأنه لم يفكر فيها، ولم تصدر عن إرادة.

ولكن علم الأخلاق لا يقبل هذا العذر؛ لأن قواعد الأخلاق توجب أن يحتاط المرء لدرء شر الحالات التي يكون فيها مسلوب الإرادة، فالناس مؤاخذون في ترك التحفظ قصداً وعمداً، والنائم والناسي والغضبان مؤاخذون على أعمالهم خلقياً لترك الحيطة والحذر.

فهذه الأعمال وأمثالها يبحث فيها علم الأخلاق، ويرتب على صاحبها مسئولية خلقية، لأنها وإن صدرت عن غير إرادة وتفكير، ولكن كان في الإمكان الحيطة وتبين نتائجها وقت الانتباه والاختيار. ويوافق هذا ما اختاره الإمام الفخر الرازي في تفسيره 1401 هـ في معنى قوله تعالى في سورة البقرة: (رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا (286))، (ج4، ص 155- 156)، فإن التماس عدم المؤاخذة على النسيان أو الخطأ، دليل على أن ذلك مظنة المؤاخذة واللوم والمسئولية.

وصفوة القول: إن علم الأخلاق يبحث في "الأعمال الإرادية" و "الأعمال المشتبهة"، وهي التي وإن كانت وقت صدورها لا دخل للمرء فيها ولا صلة له بها، ولكن كان من الممكن الاحتياط لها حين كان المرء في فسحة من الوقت، له انتباهه واختياره.

أما الأعمال غير الإرادية كالآلية والمنعكسة فليست من موضوع علم الأخلاق في قليل أو كثير. (للتوسع انظر: أمين 1974م: ص14).

- **علم الأخلاق وتقسيمه إلى نظري وعملي:**

قد يكون في وسع الإنسان أن يستغني طول حياته عن بعض مسائل العلم والمعرفة فلا تخطر له ببال، بل قد يستطيع أن يستغني عنها جميعها فترة طويلة أو قصيرة من عمره؛ ولكن أحداً لن يستطيع أن يخلي همه من المسألة الأخلاقية طرفة عين.

إنها ضرورة الحياة العملية، عند كل حركة أو سكون، وعند كل نطق أو سكوت، وعند كل هم بفعل أو قول، تلجئ كل واحد منا أن يستفتي نفسه: هل يحسن به أن يقدم أو يحجم؟

وأنها ضرورة الحياة العملية، تطالب كل واحد منا بالجواب السريع على هذا الاستفتاء، قبل أن يفوت وقت العمل، وتطالبه بأن يكون جوابه مسبباً معتمداً على مبدأ يرضاه قاعدة لسلوكه ومعياراً لحكمته وتقديره، أخطأ في ذلك أم أصاب، أساء الظن أم أحسن في اختيار القواعد والأسباب.

من هنا مست حاجة كل عاقل إلى أن يكون عنده قانون حاضر يلقنه الجواب الصحيح عند كل استفتاء، ويعصم إرادته عن الخطأ في التوجيه والاختيار.

ذلك القانون هو علم الأخلاق.

فهو جملة القواعد التي ترسم لنا طريق السلوك الحميد، وتحدد لنا بواعثه وأهدافه.

هذا إجمال له تفصيله: فدارس الأخلاق يتبين له أن منها قسماً يدرس المباحث النظرية، وهو ما يسمي بالأخلاق العامة أو النظرية، وقسماً آخر يدرس المباحث العملية، وهو ما يعرف بالأخلاق الخاصة أو العملية.

- **وعلم الأخلاق النظري:**

هو علم يبحث عن المبادئ الكلية والمعاني الجامعة، التي تشتق منها الواجبات الفرعية، كالبحث عن حقيقة الخير المطلق، وفكرة الفضيلة من حيث هي، وعن مصدر الإيجاب ومنبعه، وعن مقاصد العمل البعيدة وأهدافه العليا.

كما يدرس الضمير وماهيته ومظاهره، من عواطف مختلفة (كالرضا والاغتباط والسرور الداخلي لفعل الخير، والألم والتأنيب والندم إذا كسب المرء شراً)، وما يصدره من أحكام أخلاقية على مختلف الأعمال الإرادية، كالحكم على العمل بالخيرية أو الشرية، كما يتساءل عما إذا كانت الأخلاق علماً من العلوم، أي عملاً من أعمال العقل أو هي وليدة التقاليد؟ وما هي الطريقة التي تتبع في تعرف المثل الأعلى الأخلاقي، كما يبين أركان المسئولية الأخلاقية مثل الحرية والإرادة، ويناقش مسائل الخير والاختيار والثواب والعقاب، وما هي المقاييس التي تقاس بها الأعمال لبيان خيرها من شرها، وأخيراً ينقد النظريات التي تواردت على هذه المسائل العديدة، ويجتهد في الحصول على حل لها.

ويسمى (فلسفة الأخلاق) أو (علم الأخلاق النظري)، وهو من علم الأخلاق العملي بمنزلة أصول الفقه من الفقه، فهو شأن الخواص والمجتهدين، ولا يطلب من غيرهم إلا كما تطلب النافلة بعد تمام الفريضة، ولذلك لا نجد له من الأقدمية ولا من الشمول ما لعلم الأخلاق العملي.

فالوثائق التاريخية التي وصلت إلينا لا تشير إلى أن قدماء المصريين عرفوا هذا النوع من الفلسفة، إلى جانب الفلسفة النظرية المعروفة لهم في الإلهيات والكونيات، ولعل فلاسفة اليونان هم أول من قسم الفلسفة إلى قسمين: (فلسفة نظرية) تبحث عما يجب علمه واعتقاده، و(فلسفة عملية) تبحث عما يجب عمله والتحلي به.

ومعنى كون فلسفة الأخلاق فلسفة عملية أنها تتعلق بالعمل، لا أنها هي من نوع العمل، فإن الفلسفة كلها بحوث نظرية وإن اختلفت مادتها وموضوعها، فإذا تعلقت بالحق الذي يعتقد كانت نظرية في أداتها وفي موضوعها معاً، وإذا تعلقت بالخير الذي يفعل كانت نظرية في أداتها عملية في موضوعها، بل علم الأخلاق العملي نفسه هو أيضاً من قبيل النظر لا العمل، وإن كان العمل مادته كما هو مادة التعلم النظري. مع هذا الفارق الوحيد بينهما: وهو أن العمل الذي هو موضع العلم العملي أنواع من الأفعال لها مثال في الخارج، كالصدق والعدل ونحوهما، بينما موضوع العلم النظري هو جنس العمل المطلق، وفكرته المجردة التي لا يتحقق مسماها خارجاً إلا في ضمن الأنواع التي يبحث عنها العلم العملي. تلك الأنواع التي تعد من قبيل الوسائل لتحقيق الخير المطلق أو الفضيلة الكلية التي يبحث عنها العلم النظري.

- **وعلم الأخلاق العملي:**

هو علم يبحث عن أنواع الملكات الفاضلة التي يجب علينا التحلي بها؛ كالإخلاص والصدق والشجاعة والعفة والوفاء والعدل. كما يدرس الواجبات المختلفة؛ واجب الإنسان نحو نفسه، ونحو الأسرة، ونحو الوطن والدولة، ونحو الإنسانية، ونحو الكائنات الحية، وواجبه نحو الله تعالي. وبعبارة أخرى: إنه يعرض لمباحث الأخلاق النظرية بالتطبيق على ظروف الحياة العملية المختلفة.. ليقول كلمته فيها ببيان ما يتفق مع معاني الخير والشر، والحق والواجب، كما أن المقاييس الخلقية تقول رأيها الفصل في الواجبات الشخصية والاجتماعية والإلهية، وفي المشاكل الاجتماعية، كحقوق المرأة وحقوق العمال ونحو ذلك.

وعلم الأخلاق العملي هو أكثر النوعين ارتباطاً بالحياة، فهو الغذاء اليومي بل الواجب العيني ليكون في كل يد النبراس والمعيار. ولذلك لا تكاد تخلو من معرفته أمة من الأمم في القديم والحديث. فالكل حريص على الحث على آدابه التي يصل إليها بالفطرة أو بالفكر أو بالتجربة أو بالوراثة والرواية.

ويمكن اعتبار القسم العملي (فناً)، أي علماً تطبيقياً بالنسبة للقسم النظري، ومن تأمل ضروب الحياة وواجباتها المختلفة وتزاحمها وكثرتها وشدة الحاجة في تطبيقها إلى دقة فهم وسلامة ذوق وحكمة وسياسة؛ أدرك أن السلوك الأخلاقي يعد بحق من أرقي الفنون الجميلة لمن عرف كيف يؤلف من حياته اليومية صفحة منسقة كاملة، على منهاج هدي الرسول صلى الله عليه وسلم: (إن لربك عليك حقا، ولنفسك عليك حقا، ولأهلك عليك حقا، فأعط كل ذي حق حقه) (رواه البخاري).

- **غاية علم الأخلاق:**

ما هي الغاية التي نبتغيها من هذا النوع من الدراسة العلمية والعملية؟ وهل لدراسة الأخلاق من فائدة نرتجيها؟ وبعبارة أخرى: هل يعتبر علم الأخلاق وسيلة تامة في التربية الخلقية؟

يرى بعض الفلاسفة: أنه ليس للعلم أثر في إصلاح النفوس؛ فيقول (بليز باسكال Blaise Pascal) الفيلسوف الفرنسي (ت/1663م): إن الأخلاق الصحيحة تهزأ بعلم الأخلاق وتسخر منه. ويرى (هربرت سبنسر Herbert Spencer) الفيلسوف البريطاني (ت/1903م): أن حماسة الأخلاقيين من الفلاسفة ونشاطهم في نشر العلم رغبة في إصلاح النفوس البشرية، إنما هو بدعة وسخافة.. وكيف يرجى من العلم تهذيب النفوس بينما نرى المتعلمين الذين استنارت عقولهم لا أخلاق لهم، ونرى الواعظين يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم، وبجانب هؤلاء نجد من الجاهلين والأميين من هم على جانب عظيم من الاستقامة والشرف.

فهذا البعض من الفلاسفة ينكر الصلة بين العلم والأخلاق، ويرى عدم غناء دراسة الأخلاق، ولا يرى أن العلم وسيلة متممة للتربية الخلقية، وكأن هؤلاء الفلاسفة ومن تبعهم يرون أن الوراثة ضربة لازب، وأن المرء ينشأ على ما أمدته به الوراثة من صفات الآباء والأجداد، فهي إما أن تسمو به للخير والفضيلة، وإما أن تنحدر به إلى مهاوي الرذيلة.

وهذا الرأي بلغ من التطرف نهايته؛ فهو يهدر جميع التعاليم الأدبية، ولا يجعل قيمة للمواعظ والنصائح الأخلاقية. نعم المرء محكوم. إلى حد ما. بعامل الوراثة، ولكن ذلك لا يقلل من أهمية عامل آخر هو البيئة بمعناها الأعم، وعامل التنشئة الاجتماعية، والمتضمن ما يدرسه المرء من العلوم والفنون والآداب، وأثرها القوي في تكييف عاداته وأخلاقه.

وكيف لا تكون لدراسة الأخلاق قيمة والله تعالى يقول في سورة الذاريات: (وذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ المُؤْمِنِينَ (55))، ويقول الإمام الغزالي (ت/505هـ) في هذا المعنى في كتابه إحياء علوم الدين 1400هـ: "لو كانت الأخلاق لا تقبل التغيير لبطلت الوصايا والمواعظ والتأديبات، ولما قال صلى الله عليه وسلم: (إن خياركم أحاسنكم أخلاقا) (متفق عليه)، فكيف ينكر هذا في حق الآدمي وتغيير طباع البهيمة ممكن؛ إذ ينقل البازي من الاستيحاش إلى الأنس، والكلب من شره الأكل إلى التأدب والإمساك، والفرس من الجماح إلى السلاسة والانقياد؟!" (مجلد3، ج8، ص101).

يقول (سقراط Socrates) الفيلسوف اليوناني (ت/399 ق.م): "إن معرفة الفضيلة تكسبها، والجهل بها مصدر الرذيلة ومأتاها، لأن الهدف الذي تنزع إليه فطرة الإنسان هو سعادته الحقيقية، والفضيلة هي الطريق الوحيد الموصلة إلى ذلك الهدف دائماً، ولا يتصور أحد أن يسلك المرء سبيل شقاوته وهو عالم مختار في عمله، والأشرار لا ذنب لهم إلا جهلهم بحقيقة مقاصدهم، أو جهلهم بتحديد وسائلها، وعلاجهم هو بتصحيح معلوماتهم، لا بتقويم نواياهم وعزائمهم، لأنهم لا ينوون الخير لأنفسهم، ولكنهم يجهلون ذلك الخير أو يجهلون وسائله" (كرم1976م: ص 314).

فهو بهذا يؤكد الصلة بين العلم والأخلاق، ويرى أن دراسة علم الأخلاق وسيلة تامة للتربية الخلقية، سواء أردنا بالعلم مجرد المعرفة التلقينية أو الإدراك العقلي الجاف، أم أردنا المعرفة الكاملة الملهمة المتميزة.

نعم، العلم إذا تغلغل في النفوس أورثها البأس والإقدام، وكساها حلة المهابة واليقين، ولكن العاملين بعلمهم هم الأقلون قديماً وحديثاً، ومن أجل ذلك قال الإمام علي رضي الله عنه: "إنما زهد الناس في طلب العلم لما يرون من قلة انتفاع من علم بما علم" وها نحن أولاء نرى الناس يتلون من كتاب الله ويسمعون من السنة النبوية والحكم الخلقية وهم مع ذلك خلو من حلية التقوى وطابع الهدى، لا تثنيهم يد المراقبة، ولا تكفهم خيفة المحاسبة، فهم لدواعي الهوى مطيعون، ولدعائم الأخلاق مضيعون" فالعلم بذلك ليس وسيلة تامة للتربية الخلقية كما يرى سقراط، ومن كلام (أفلاطون Plato) الفيلسوف اليوناني (ت/348 ق.م): "ليس بالعلم وحده يصبح المرء فاضلا" (المرجع السابق: ص 55-56) وانظر: (زكريا 2004م: ص 13 وما بعدها) وانظر: (يالجن 1406هـ: ص 338- 339).

ويوضح بعضهم معنى ذلك؛ بأنه ليس المقصود بالعلم مجرد المعرفة التلقينية أو الإدراك العقلي الجاف، بل المعرفة المتملكة من العقل إلى القلب، والتي تصبح إيماناً عميقاً، وقوة ملهمة للإرادة ومتحمسة.. وبذلك يكفي العلم في التربية، وتحقيق الفضيلة، حتى أن الذي يفعل السوء يبرهن على نقصه في معرفة الخير وإيمانه. فهو بذلك يؤكد رأي سقراط ويفصله، فيؤكد الصلة بين العلم والأخلاق. ولكن العلم وحده ليس وسيلة تامة للتربية الخلقية، بل لابد مع المعرفة اليقينية المهمة من وجود إرادة مؤمنة متحمسة. (وهذه أيضا نظرة كثير من علماء النفس المحدثين، ويعتبر المجرم في أمريكا مريضاً نفسياً ويلحق بمصحة علاجية).

ويرى أفلاطون: أن الاعتقاد الديني هو من أنجع الوسائل في التربية الخلقية، وأنه لا يمكن ممارسة حياة الفضيلة والخير إلا إذا جعلنا الله غايتنا. (أندريه كرسون Andre Wilkerson: المشكلة الأخلاقية: ص 78- 90).

فدراسة الأخلاق وسيلة ناجحة من وسائل التربية والتهذيب، لأن البحث في الفضائل وحسن عاقبتها، وتعرف الرذائل وسوء مغبتها، ودراسة نماذج للمثل الأعلى من أهل الفضيلة في حياتنا، والأسوة الحسنة في تاريخنا، كل ذلك يستهوى الدارس ويغريه بالتحلي بالفضيلة والتخلي عن الرذيلة، ولا ينكر أحد ما لقوة الإغراء والاستهواء من أثر كبير.

كما أن دراسة الأخلاق تكسب صاحبها الدقة في تقدير الأعمال الأخلاقية، والإصابة في الحكم عليها، بعد أن وقف على معاني الخير والشر وما إليها، وعرف المقاييس الأخلاقية التي تقاس بها الأعمال المختلفة.

ففي بحث الأعمال لبيان خيرها وشرها، هناك فرق كبير بين من يعتمد في حكمه على الدراسة والعلم، وبين من يستند إلى العادة والعرف، وقد يصيب صاحب العادة والتقليد، ولكن صوابه يكون كرمية من غير رام، وقد يخطئ صاحب الدراسة والبحث في بعض الجزئيات الدقيقة ولكن خطأه يكون نادراً.

ومثل هذا الفرق تجده بين زارع للأرض وهو دارس للزراعة علمياً وعملياً، خبير بالتربة وما يصلحها، ملم بأنواع المزروعات والأمراض التي تصيبها وطرق علاجها، وبين زارع آخر لا يعتمد إلا على تجربة ناقصة وتقليد للآباء والأجداد، وهكذا الفرق بين الطبيب والدجال، والمهندس المعماري ومن يتلقي بالوراثة حرفة البناء.

ويمكن أن نلخص الغاية من دراسة الأخلاق فنقول:

- دراسة علم الأخلاق تكسب صاحبها القدرة على تمحيص الأعمال ونقدها وتقديرها حق قدرها، دون أن يخضع في حكمه إلى إلف أو عادة. (تقوية الضمير).

- وبها تقوى الإرادة على عمل الخير وسلوك السنن القويم، وتنشط العزيمة للمضي في سبيل الفضيلة واتخاذها نبراساً في أعمالها. (تقوية الإرادة).

ومع أن دراسة الأخلاق وسيلة ناجحة للتربية والتهذيب، إلا أنها مع ذلك لا يمكن أن تجعل جميع الناس أخياراً، لأن ذلك يتوقف على عوامل متعددة منها: الوراثة والتنشئة الاجتماعية، والاستعداد الشخصي.. ولكن كفاها فضلاً أنها تهدينا النجدين، وترشدنا إلى الصراط المستقيم.

وفي الإشارة إلى عامل الوراثة، يقول تعالى في سورة مريم: وفي الإشارة إلى عامل الوراثة، يقول تعالي في سورة مريم: (يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ ومَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًا (28))، وفي الإشارة إلى عامل التنشئة الاجتماعية يقول تعالي في سورة الإسراء: (واخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا (24))، وفي الإشارة إلى عامل الاستعداد الشخصي يقول صلى الله عليه وسلم: (الناس معادن خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا (متفق عليه)، ويصور هذا المعني قول النبي صلى الله عليه وسلم: (مثل ما بعثني الله به من الهدي والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً فكان منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصابت منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به) (متفق عليه).

وكذلك شأن الأخلاق والنفوس التي فيها استعداد للفضيلة والخير، والنفوس الأخرى التي ختم الله على قلوبها فلا تنتفع بموعظة، ولا تقبل نصيحة، قال تعالى في سورة الأعراف: (واتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الغَاوِينَ (175) ولَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا ولَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ واتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الكَلْبِ إن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ القَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ القَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (176) سَاءَ مَثَلاً القَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ (177) مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ المهْتَدِي ومَن يُضْلِلْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الخَاسِرُونَ (178)).

وقال تعالى في سورة ا لجاثية: (أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وقَلْبِهِ وجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلا تَذَكَّرُونَ (23)).

• الأخلاق الفلسفية والأخلاق الدينية:

يرى الباحثون من علماء الغرب أن قوانين الأخلاق الفلسفية وقوانين الأخلاق الدينية يختلفان اختلافاً بيناً؛ من حيث موضوعها (أي نوع العلاقات التي ينظم كلا منهما)، ومن حيث الواضع لهما (أي المصدر والسلطة التي يصدر عنها الأمر الأخلاقي)، ومن حيث أساس التشريع (أي الأسباب التي يستند إليها)، ومن حيث بواعث العمل وأهدافه وجزاءاته المقررة في كل منهما وبيان ذلك فيما يأتي:

1- من حيث الموضوع:

فالأخلاق الدينية في نظرهم. أي أنهم لا يدخلون الأخلاق الإسلامية في كلامهم. تنظم الصلة بين الخالق والمخلوق، ولا شأن لها بالمعاملات الإنسانية، بينما الأخلاق الفلسفية ترسم الطريق لسلوك الإنسان في نفسه أو في المجتمع، ولا شأن لها بنظام الشعائر والعبادات، لا بمعنى أنها تقف منها موقف الحياء، أو موقف القبول والتلقي من يد العرف؛ بل أنها قد تنكرها إنكاراً، وهكذا ينفصل موضوع الأخلاق الدينية والأخلاق الفلسفية انفصالاً تاماً.

يقول الفيلسوف (إيمانويل كانت Immanuel kant): "إنه ليس على الناس واجبات قط نحو خالقهم لأنهم ليس لهم حق قبله، وكل واجب يقابله حق لا محالة"، ونرد فنقول: بعد التسليم بالمقدمة الثانية بشأن تبادل الحقوق، فإن المقدمة الأولى مخالفة للتعاليم الإسلامية؛ فالإسلام يقرر أن للعباد على الله حقاً كتبه على نفسه تفضلاً إذا عبدوه لا يشركون به شيئا أن لا يعذبهم، فعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (يا معاذ أتدري ما حق الله على العباد؟ قال الله ورسوله أعلم، قال: أن يعبد الله ولا يشرك به شيء، قال: أتدري ما حقهم عليه إذا فعلوا ذلك؟ فقال: الله ورسوله أعلم، قال: أن لا يعذبهم) (رواه مسلم) وفي رواية عند أحمد: (قال: أن يدخلهم الجنة)، ومصداق ذلك من القرآن الكريم في سورة التوبة: (إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ (111))، وقد زعم (إيمانويل كانت Immanuel kant) أيضا: أنه ليس على الناس واجبات تجاه الكائنات الدنيا لهذا السبب نفسه، وهو عدم تبادل الحقوق بينهما، وذلك أيضا خلاف التعاليم الإسلامية التي تقرر على المؤمنين واجبات من العناية والرفق بالحيوان، ومن العناية والإصلاح في كل شيء يقع في قبضة الإنسان جزاءً لحق التسخير الذي خوله الله للناس على سائر الكائنات. (وسيأتي تفصيل ذلك).

2- من حيث واضع القانون ومستنده:

تلتقي المذاهب الفلسفية على أن مصدر الإلزام الأدبي هو مصدر إنساني خالص وإن اختلفت بعد ذلك في التفاصيل: هل هو العقل أم الضمير الخلقي أم ضرورة الحياة الاجتماعية؟ وترى أن مستنده في التشريع هو اعتبارات إنسانية تبرر حكما لدى العقل أو العاطفة، أما الإلزام في الدين فيقولون: إن مصدره إلهي صرف، كما أن مستنده هو الإرادة العليا المحضة وقضاؤها المبرم، اقتنع العقل أم لا، رضي الناس أم لا.

3– ومن حيث بواعث العمل وأهدافه وأجزيته (عوامل السلوك):

وقالوا: إن النظرة الدينية تختلف عن النظرة الفلسفية من هذه النواحي أيضا. فالشرائع الدينية تضع لمن يطيع أمرها أو يعصاه جزاء أخرويا مثوبة أو عقوبة، والترغيب في الفضيلة والترهيب من الرذيلة يعتمد في وسائله على هذا الجزاء، ويكون هدف الناس الوحيد هو: نيل الثواب والنجاة من العقاب، وباعثه الوحيد على العمل هو الخوف أو الرجاء. وبذلك يصبح العمل الأخلاقي عملا حسابيا لموازنة الربح والخسارة، وليس عملا خلقياً بريئاً من الأغراض مجرداً عن الغايات.

- **الأخلاق الفلسفية:**

فإن قانونها لا يفترض جنة ولا ناراً ولا حياة بعد الموت، وجزاء الفضيلة عنده هو نتيجتها الطبيعية، من رضا العامل وطمأنينته وشعوره باستكمال إنسانيته، وارتياح ضميره بآراء الواجب، وإن لوح بعد ذلك بشيء من تحقيق المصالح الإنسانية التي يثمرها العمل، أو الفوائد التي تعود على العامل (كطيب الذكر وحسن السمعة) فإنما هي أجزية أدبية. وإذا نظرنا في هذه الفوارق وقيمتها وجدناها لا تنطبق على وجهة النظر في الأخلاق الإسلامية، وذلك على الوجه الآتي:

- **الأخلاق الإسلامية**:

- **من حيث الموضوع:**

أما أن موضوع الأخلاق الدينية ينحصر في مادة العبادات والأمور الإلهية؛ فإنه إذا صح ذلك في دين ما فما أبعده عن أن يكون طابعاً لقانون الأخلاق في الإسلام، وقد سبق أن موضوع علم الأخلاق هو الأعمال الإرادية والمشتبهة من حيث التوجيه والحكم وما يلزمهما. ومع هذا فإنه قد اتسع لمجالات متعددة. فقد تناول الأمور الإلهية والعبادات والشعائر، ونظم السلوك الإنساني، فلم يترك للنشاط الإنساني. فردياً أو اجتماعياً. مجالاً حيوياً أو أدبياً أو فكريا أو روحياً إلا رسم له منهجا للسلوك، حسب قاعدة معينة. وزاد على ذلك أنه تخطى علاقة الإنسان بنفسه وعلاقته ببني جنسه، فشمل علاقته بالكون جملة وتفصيلا، ووضع لذلك كله الآداب المرضية والتعاليم السامية.

فقد آثار القرآن الكريم التعاطف بين الإنسان وبين الكائنات الحية وغيرها، قال تعالى في سورة الأنعام: (ومَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ ولا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ (38)).

وجعل حق التسخير لهذه الكائنات يقابله واجب العناية والإصلاح والرحمة والرفق بالحيوانات، ففي حق التسخير قال تعالى في سورة النحل: (والأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ ومَنَافِعُ ومِنْهَا تَأْكُلُونَ (5) ولَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وحِينَ تَسْرَحُونَ (6) وتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (7) والْخَيْلَ والْبِغَالَ والْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وزِينَةً ويَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ (8) وعَلَى اللهِ قَصْدُ السَّبِيلِ ومِنْهَا جَائِرٌ ولَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (9) هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ ومِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ (10) يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ والزَّيْتُونَ والنَّخِيلَ والأَعْنَابَ ومِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (11) وسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ والنَّهَارَ والشَّمْسَ والْقَمَرَ والنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ

بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (12) ومَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (13) وهُوَ الَّذِي سَخَّرَ البَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًا وتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ ولِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ ولَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (14) وأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وأَنْهَارًا وسُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (15) وعَلامَاتٍ وبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ (16) أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ (17) وإن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (18))، وقال تعالى في سورة الملك: (هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وإِلَيْهِ النُّشُورُ (15)).

وفي واجب الرحمة والرفق بالحيوان قال صلى الله عليه وسلم: (في كل كبد رطبة أجر) (متفق عليه)، وفي صحيح مسلم: (إِنَّ اللهَ كَتَبَ الإِحْسَانَ عَلَى كلِّ شَيْءٍ، فإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا القِتْلة، وَإِذَا ذَبَحْتُم فأحسنوا الذبح، وليحد أحدكم شفرته، وليرح ذبيحته)، وفي المسند وصحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها أنها ركبت بعيرا وكان منه صعوبة، فجعلت تردد، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم: (عليك بالرفق فإنه لا يك في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شانه).

فإذا ضيع الإنسان هذا الواجب فعقابه على الله، كما قال صلى الله عليه وسلم: (دخلت امرأة النار في هرة ربطتها فلا هي أطعمتها ولا هي أرسلتها تأكل من خشاش الأرض حتى ماتت هزلا) (رواه مسلم).

وفي واجب العناية والإصلاح قال تعالى في سورة آل عمران: (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ واخْتِلافِ اللَّيْلِ والنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ (190)). قال الرازي في تفسيره 1401هـ: "قال ابن عمر: قلت لعائشة: أخبريني بأعجب ما رأيت من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فبكت وأطالت ثم قالت: كل أمره عجب، أتاني في ليلتي فدخل في لحافي حتى ألصق جلده بجلدي، ثم قال لي: يا عائشة هل لك أن تأذني لي الليلة في عبادة ربي؟ فقلت: يا رسول الله إن لأحب قربك وأحب مرادك قد أذنت لك. فقام إلى قربة من ماء في البيت فتوضأ ولم يكثر من صب الماء، ثم قام يصلي، فقرأ من القرآن وجعل يبكي، ثم رفع يديه فجعل يبكي حتى رأيت دموعه قد بلت الأرض، فأتاه بلال يؤذنه بصلاة الغداة فرآه يبكي، فقال له: يا رسول الله أتبكي وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: (يا بلال أفلا أكون عبداً شكوراً؟! ثم قال: ما لي لا أبكي وقد أنزل الله في هذه الليلة: (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ...) ثم قال: ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها) وري: (ويل لمن لاكها بين فكيه ولم يتأمل فيها)" (مجلد 5، ج9، ص138).

فإذا فرط الإنسان في هذا وسعى بالفساد في الأرض استحق غضب الله، قال تعالى في سورة البقرة: (ومِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا ويُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وهُوَ أَلَدُّ الخِصَامِ (204) وإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا ويُهْلِكَ الحَرْثَ والنَّسْلَ واللَّهُ لا يُحِبُّ الفَسَادَ (205) وإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ العِزَّةُ بِالإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ ولَبِئْسَ المِهَادُ (206))، وهكذا جمع الإسلام أطراف الحقيقة الأخلاقية، وجمع بين ما فرق الناس باسم الدين وباسم الفلسفة ووفق بينهما وكان له المزيد. (يمتاز بالجمع والتوفيق والتكميل).

• **من حيث أساس التشريع الأخلاقي ومصدره:**

أما أن مصدر الأخلاق الدينية إلهي، وأنها لذلك تستند إلى هذا المصدر المقدس الواجب الطاعة، وتتبع الأسلوب التحكمي التعبدي ولا تهتم باقتناع العقل واطمئنان الضمير فنقول: إن الناظر في أسلوب الدعوة الأخلاقية في الإسلام يرى أنها لم تأخذ الطابع التعبدي التحكمي الذي نسبوه إلى الأخلاق الدينية، وإنما تعتمد دائما على الحكم المعقولة المقبولة، فتخاطب الإدراك السليم، والوجدان النبيل، بأسباب مقنعة تبرر أمرها بما تأمر به، ونهيها بما تنهى عنه، تفصيلاً وإجمالاً وضمناً.

• **فالأسلوب التفصيلي:**

هو الذي يقرن الأمر الأخلاقي ببيان الحكمة والسبب تفصيلاً، ومن ذلك قوله تعالى في سورة الحجرات: (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ واتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (10) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ ولا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ولا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ ولا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ ومَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (11) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ولا تَجَسَّسُوا ولا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ واتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ (12) يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وأُنثَى وجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (13))، وفي سورة البقرة: (ولا تَسْأَمُوا أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ وأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وأَدْنَى أَلاَّ تَرْتَابُوا (282)، وفي سورة العنكبوت: (اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الكِتَابِ وأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ والْمُنكَرِ ولَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ واللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ (45))، وفي سورة فصلت: (ولا تَسْتَوِي الحَسَنَةُ ولا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وِلِيٌّ حَمِيمٌ (34) ومَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا ومَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (35)).

والأسلوب الإجمالي هو الذي يقرن الأمر الأخلاقي ببيان الحكمة والسبب إجمالا، ومن ذلك قوله تعالى في سورة الجمعة: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِن يَوْمِ الجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وذَرُوا البَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (9))، وقوله في سورة النساء: (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا (58)).

• **الأسلوب الضمني:**

وحتى إذا جاء الأمر الأخلاقي مجرداً عن التعليل؛ فإن النص يشفع الأمر الأخلاقي بما ينزع عنه صبغة التعنت والتحكم وفرض الطاعة اعتماداً على أن المصدر واجب الطاعة، بل لأن الأمر ذو حكمة بالغة وعلم واسع، فلا يأمر إلا بما يصلح

البشرية ويهديها سواء السبيل، قال تعالى في سورة البقرة: (كُتِبَ عَلَيْكُمُ القِتَالُ وهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وعَسَى أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ واللَّهُ يَعْلَمُ وأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ (216)).

وبذلك نرى أن قانون الأخلاق في الإسلام لا يستند في التشريع والإلزام إلى قداسة المصدر ووجوب طاعته فقط، وإنما يحرص على التحليل والتعليل وبيان الحكم التي تقنع العقل، ويطمئن لها الضمير.

- **مصدر التشريع:**

يرى الغربيون أن الأخلاق مصدرها إلهي لا إنساني، ويفخرون بأنهم اكتشفوا للإلزام الأدبي (الأخلاقي) مصدراً آخر غير الوحي السماوي، ألا وهو النور العقلي أو الإحساس الخلقي الذي ينطوي عليه قلب الإنسان.. ولكن هذا ليس بجديد على الإسلام.

فالقانون الإسلامي في رجوعه إلى العقل السليم والضمير الحي فإنه لا يرجع إليهما على أنهما مؤيدان له فحسب، يبرران حكمه ويشفعان له عند الناس؛ بل إنه يعطيهما سلطة الحكم والأمر والنهي في أطوار ثلاثة: قبل ورود الشرع، وفي أثناء نزول الشرع، وبعد انتهائه وتمامه. وذلك على النحو التالي:

– أما قبل نزول الشرع: فقد قرر القرآن الكريم في أصرح عبارة أن النفوس قد منحت بفطرتها قوة التمييز بين الخير والشر والتقوى والفجور والعدل والظلم، قال تعالى في سورة الشمس: (ونَفْسٍ ومَا سَوَّاهَا (7) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وتَقْوَاهَا (8) قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (9) وقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا (10))، وقال في سورة القيامة: (بَلِ الإنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (14) ولَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ (15)) ولم يكتف بأن جعل هذه البصيرة قوة مدركة كاشفة معرفة، بل جعلها حاكمة آمرة ناهية، ونعى على من خالفها أنه من أهل الضلال والطغيان، قال تعالى في سورة الطور: (أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلامُهُم بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ (32))، فالخضوع لأوامر الأحلام والعقول على ذلك حق لا شك يه، متى اتضح أمامها طريق الحق والخير، وفي مصنف ابن أبي شيبة من كلام الحسن البصري رحمه الله قال: "حدثنا وكيع عن ابن عون عن محمد قال: كنا نتحدث، أن العبد إذا أراد الله به. أظنه قال– خيراً، جعل له زاجراً من نفسه يأمره بالخير، وينهاه عن المنكر" (ج7، ص200، رقم 35324).

لعل من قائل: إن الحسن والقبح في الأفعال شرعيان، فالحسن هو ما أمر به الشرع، والقبيح هو ما نهى عنه الشرع، أما القول بأن الحسن والقبح عقليان فهو مقالة المعتزلة. وهذا صحيح. ولكن نقول مجيبين: إنه لا يوجد عاقل ينكر ما منحه الله للإنسان من ملكة التمييز بين الأفعال، والحكم عليها بالحسن أو القبح بالمعنى الإنساني، بمعنى: أن بعضها يقبله الطبع السليم ويعده صفة كمال ويمدح فاعله، وبعضها الآخر يمجه الذوق السليم ويعده صفة نقص ويذم فاعله، وهذا كله لا جدال فيه، وإنما الخلاف في أمر آخر، وهو أن الأحكام التي تصدرها عقولنا هل نحزم بمطابقتها للواقع وبأنها حكم الله في نفس الأمر؟ وهل نعتقد أن الله كلفنا بإتباعها وسيحاسبنا عليها ويجزينا ثوابا أو عقابا قبل إرسال رسول أو

إنزال كتاب، أم ينبغي ألا نتخذ أحكامنا مرآة صادقة لأحكام الله إلا أن يرسل إلينا رسولا؟ فهذا هو محل الخلاف وليس محل بحثنا الآن.

فالإسلام يقرر للعقل سلطاناً أدبياً بالمعنى الإنساني (السابق بيانه) ويسميه الغربيون (سلطان الضمير)، كما يعترف باستقلاله وكماله في الفترة السابقة على نزول الشريعة ووصولها إلى من وجهت إليه.

- وأثناء نزول الشريعة وبعد تمامها: هل يبطل دور العقل وتنسخ أحكامه وأوامره؟ الجواب: لا، فإن النور لا ينسخ النور أبدا، ولكنه لا يكون مستقلا ولا كاملاً كالحالة السابقة. فإما أن يؤكده نور الشرع ويؤيده ويقرره، وإما أن يغذيه ويقويه، وإما أن يزيده ويكمله، وبيان ذلك فيما يأتي: إن شئون الإنسان على ثلاثة أقسام:

- منها ما للعقل فيه مجال واضح وحكم حاسم، وهو البديهيات والأصول التي لا تتعارض فيها العقول ولا يختلف فيها اثنان، مثل: الصدق النافع حسن، والكذب الضار قبيح. ففي هذا القسم يجيء الشرع مقرراً لحكم العقل ومؤيداً ومؤكداً. قال تعالى في سورة التوبة: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ (119))، وروى مسلم وغيره عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقا، وإياكم والكذب، فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وما يزال الرجل يكذب ويتحري الكذب حتى يكتب عند الله كذابا).

- ومنها: ما للعقل فيه نور ضئيل تخالطه الأوهام، وهو مواضع الشبهات العقلية، كالربا والصدق الضار والكذب النافع.. وفي هذا القسم يجيء الشرع مقويا لنور العقل، بتصحيح أخطاء الوهم، وترجيح جانب الحكمة والرشد، قال تعالى في سورة الروم: (وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلا يَرْبُو عِندَ الله وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ الله فَأُوْلَئِكَ هُمُ المضْعِفُونَ (39))، وقال تعالى في سورة المائدة: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ولا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى واتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (8))، وقال في سورة النساء: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ ولَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الوَالِدَيْنِ والأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلا تَتَّبِعُوا الهَوَى أَن تَعْدِلُوا وإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (135)).

- ومنها: ما لا مدخل للعقول فيه كالعبادات، فيجيء الشرع مكملاً لما فات العقل إدراكه، وهكذا يكون لمن يتبعون شريعة ا لعقل وحدها نور واحد، ولأهل الشرائع السماوية نوران، قال تعالى في سورة النور: (نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ ويَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ واللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (35)).

وهل نور الشريعة فيما لم يهتد إليه العقل بمفرده قد استغني عن نور الفطرة (الضمير) بالكلية؟ لا، فإنه لا يزال محتاجاً إلى دوره للأمور الآتية:

• **دور الضمير في الإسلام**:

1- التبرير الفطري:

الشرع يستند على نور الضمير عند مطالبته المؤمنين بأداء واجباتهم الشرعية، لا باعتبارها أوامر إلهية فحسب، بل باعتبارها أوامر أخلاقية، بعدما التزموا بوجه عام بمقتضى عقد الإيمان، الذي ينطوي على السمع والطاعة لله، قال تعالى في سورة المائدة: (واذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ومِيثَاقَهُ الَّذِي واثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وأَطَعْنَا واتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (7))، وقال في سورة الحديد: (آمِنُوا بِاللَّهِ ورَسُولِهِ وأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ (7) ومَا لَكُمْ لا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ والرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (8)).

2- تفصيل المجمل:

إن أوامر الشرع غالباً أوامر عامة كلية، ترك الشرع تحديدها وتفصيلها إلى تقدير الضمير الخلقي ا لموجود في كل نفس وفي كل جماعة بشرية، بل كثيراً ما صرح القرآن الكريم بتفويض هذا الضمير الشخصي أو الجماعي في تحديد مقادير الواجبات وفي أساليب أداء الحقوق، قال تعالى في سورة البقرة: (واسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى... (282))، وقال في سورة البقرة أيضا: (والْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وعَلَى المَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلاَّ وسْعَهَا لا تُضَارَّ والِدَةٌ بِوَلَدِهَا ولا مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ وعَلَى الوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالاً عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وتَشَاوُرٍ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وإِنْ أَرَدْتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوا أَوْلادَكُمْ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ واتَّقُوا اللَّهَ واعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (233)).

3- الامتثال للواجب:

إن الإسلام لا يطلب ولا يرضى أن تنفذ أوامره تنفيذاً آلياً خضوعاً لحكمه، بل لابد أولاً أن تسري أوامره إلى أعماق الضمير حتى يتشربها القلب، ثم تفيض عنه وقد تحولت إلى أوامر ذاتية انبعاثية، فإن أول خطوة في الامتثال للواجب هي الإيمان بوجوبه وعدالته، ثم يحمل هذا الإلزام بعد ذلك إلى النفس عن طريق الضمير مشفوعا بصوته المنبعث من الأعماق ينادي: "أيتها النفس: إن الله يأمرك أن تفعلي وأنا آمرك أن تطيعي أمره فإنه حق وعدل، وأنه لا خير لك في رده"، فإن لم ينبعث هذا التبليغ من الأعماق ولم يرتفع صوت الضمير الداخلي بترديد ذلك الصوت السماوي، كان العمل عند ذلك هباء عند الله وفي نظر الأخلاق، وفي هذا المعنى قال تعالى في سورة النساء: (فَلا ورَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ

فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ ويُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (65))، فالضمير إذن هو بريد الشرع الذي لا سبيل إلى الامتثال للواجب إلا عن طريقه، وكفى بذلك رفعاً لمكانته في جوانب الشريعة.

4- الاحتياط في المتشابه:

وبعدما بينت الشريعة الحلال الصريح والحرام الصريح تركت المنطقة التي يشتبه فيها الحكم، وفوضت للمرء أن يستفتي فيها قلبه ويتحرى طمأنينة نفسه أخذاً بالأحوط والأسلم.

فالأحوط إذا اشتبه في أمر هل هو واجب أم مندوب فإنه يفعله أخذاً بالأحوط كمن شك هل صلى العصر أم لا، فيحتاط لأمره ويصلي، والأسلم إذا اشتبه في أمر هل هو حرام أم حلال وليس بعد دليل فإنه يتركه أخذا بالأسلم، كمن شك هل تحل له هذه العروس أم لا؟ بأن أخبرته امرأة أنها أخته من الرضاع فيتوخي الأسلم ويتركها.

فعن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (إن الحلال بين وإن الحرام بين، وبينهما مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمي يوشك أن يرتع فيه، ألا وإن لكل ملك حمى، ألا وإن حمى الله محارمه، ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب) (متفق عليه).

وفي المسند عن وابصة الأسدي رضي الله عنه قال: (أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا أريد أن لا أدع شيئا من البر والإثم إلا سألته عنه وحوله عصابة من المسلمين يستفتونه، فجعلت أتخطاهم، قالوا: إليك يا وابصة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قلت: دعوني فأدنو منه فإنه أحب الناس إلى أن أدنو منه، قال: دعوا وابصة، ادن يا وابصة —مرتين أو ثلاثاً. قال: فدنوت منه حتى قعدت بين يديه، فقال: يا وابصة أخبرك أو تسألني؟ قلت: لا بل أخبرني، فقال: جئت تسألني عن البر والإثم، فقال: نعم، فجمع أنامله فجعل ينكت بهن في صدري ويقول: يا وابصة استفت قلبك واستفت نفسك (ثلاث مرات)، البر ما اطمأنت إليه النفس، والإثم ما حاك في النفس وتردد في الصدر وإن أفتاك الناس وأفتوك) (قال المحقق: إسناده ضعيف لانقطاعه. الزبير أبو عبد السلام لم يسمع من أيوب).

5- محكمة الضمير في الآخرة:

وأخيراً فإن سلطان الضمير في نظر الإسلام لا ينتهي بانتهاء هذه الحياة بل إن له في المحاسبة في دار الجزاء دوراً مهماً، حيث يتقدم بين يدي فصل القضاء ويصدر حكمه على صاحبه قبل أن يصدر عليه الحكم الأعلى، قال تعالى في سورة الإسراء: (وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ونُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا (13) اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ اليَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا (14) مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ومَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ولا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى... (15)).

وهكذا نرى أن قانون الأخلاق في الإسلام لم يقتصر على المصدر الإلهي وحده، ولم يهمل الجانب الإنساني كما زعم الغربيون، وإنما جمع في ذلك بين ما فرقه الناس باسم الدين وباسم الفلسفة.

كما وفق بين المصدرين، وأتى في ذلك بالمزيد (يمتاز بالجمع والتوفيق والتكميل وإن كان المراد بالجمع أن الوحي جاء معبراً عن الحقيقة من جميع وجوهها، وليس معناه التأثر بما جاء خارج الإسلام).

- **الجزاء:**

- وأما الحديث عن الجزاء ودعوى اختلاف طبيعته في نظر الدين عن طبيعته في نظر الفلسفة فإنه وإن سلم ذلك في بعض الأديان الأخرى فهو أبعد ما يكون عن وجهة النظر في الأخلاق الإسلامية.

نعم هذا الإدعاء في الجملة أكثر انطباقاً على المسيحية منه على اليهودية. إن صحت نسبة كتبهما المعروفة إليهما. فقد كان الترغيب والترهيب في التوراة بوعود وإيعادات عاجلة كلها في الحياة الدنيا، وتكاد تستأثر بها النزعة المادية الخالصة والصحة والرخاء وكثرة الأولاد وهزيمة الأعداء للمطيعين، وأضدادها لأضدادهم، ثم جاء الإنجيل على العكس من ذلك، يحول أنظار معتنقيه من ملك الأرض إلى ملكوت السماء، ويبشر الخبرين بما أعد لهم في الآخرة من جزاء، القرض الحسن بأحسن منه..

أما القرآن الكريم فقد نظم هذين المسلكين المتباعدين في مسلك واحد، قال تعالى في سورة النحل: (والَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ولأَجْرُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (41) الَّذِينَ صَبَرُوا وعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (42))، ثم قام إلى جانب مهمة الجمع والتوفيق بمهمة البناء والتكميل، فوصف ما للفضيلة من الأجزية والآثار المعنوية الصالحة (روحية وعقلية وخلقية وحسية، عاجلة وآجلة) بحيث تتذوق كل نفس طعم الأمنية التي تشتاقها:

– ففي الروحيات: (مَن كَانَ يُرِيدُ العِزَّةَ فَلِلَّهِ العِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الكَلِمُ الطَّيِّبُ والْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ والَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ومَكْرُ أُوْلَئِكَ هُوَ يَبُورُ (10)) (سورة فاطر)، (قُلْ إن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ويَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ واللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (31))(سورة آل عمران)

(وقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ (60)) (سورة غافر).

– وفي العقليات: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ويُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ويَغْفِرْ لَكُمْ واللَّهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيمِ (29)) (سورة الأنفال) (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ ويَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ ويَغْفِرْ لَكُمْ واللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (28)) (سورة الحديد)، (واتَّقُوا اللَّهَ ويُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ واللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (282)) (سورة البقرة).

– وفي الأخلاقيات: (والَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ المحْسِنِينَ (69)) (سورة العنكبوت)، (والَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (17)) (سورة محمد صلى الله عليه وسلم)، (فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ واللَّهُ لا يَهْدِي القَوْمَ الفَاسِقِينَ (5)) (سورة الصف)، (يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وفِي الآخِرَةِ ويُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ ويَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ (27)) (سورة إبراهيم).

– وفي الحسيات العاجلة: (فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (10) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا (11) ويُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وبَنِينَ ويَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ ويَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا (12)) (سورة نوح)، (وأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ويُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وإن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ (3)) (سورة هود)، (ولَوْ أَنَّ أَهْلَ القُرَى آمَنُوا واتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ والأَرْضِ ولَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (96)) (سورة الأعراف)، (ولَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ (105)) (سورة الأنبياء).

– وفي الحسيات الآجلة: (الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ المُتَّقِينَ (67) يَا عِبَادِ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ اليَوْمَ ولا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ (68) الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وكَانُوا مُسْلِمِينَ (69) ادْخُلُوا الجَنَّةَ أَنتُمْ وأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ (70) يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وأَكْوَابٍ وفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنفُسُ وتَلَذُّ الأَعْيُنُ وأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (71) وتِلْكَ الجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (72) لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ (73)) (سورة الزخرف).

ومن أجل هذه الجزاءات القرآنية نعمة الرضا والارتياح لأداء الواجب، وهي المتعة التي تزعم الفلسفة استئثارها بها: (وجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ (8) لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ (9) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (10) لا تَسْمَعُ فِيهَا لاغِيَةً (11) فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ (12) فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ (13) وأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ (14) ونَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ (15) وزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ (16)) (سورة الغاشية)، وفي الحديث الشريف: (من ساءته سيئته وسرته حسنته فهو مؤمن) (رواه الإمام أحمد والنسائي).

ويحاول الجاهلون المقارنة بين صورة الجنة في الإسلام وفي المسيحية، فوصفوا الأولى بأنها دار طعام وشراب ومتعة بدنية خالصة، والثانية بأنها دار حياة روحية صافية، وقد أخطأوا في الحالتين، فالجنة في القرآن والإنجيل كما يعرف بالرجوع إلى نصوصهما دار نعيم بدني وروحي معاً، لأنها جزاء للإنسان في جملة جسمة وروحه، لا في أحد شطريه دون الآخر.

على أن القرآن يضيف إلى الجزاءين بيان التفاوت العظيم بين قيمتهما، ويجعل المعنى الروحي منهما هو المقصود الأهم، فبعد ذكر المساكن الطيبة في جنات عدن، ذكر الرضوان من الله أكبر، قال تعالى في سورة التوبة: (وعَدَ اللَّهُ المُؤْمِنِينَ والْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ومَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ورِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الفَوْزُ العَظِيمُ (72))، نعم، إن الجوائز المادية والمتعة البدنية ليست قيمتها في صورتها ومادتها فقط؛ وإنما في مغزاها ودلالتها، وهو التكريم والرضوان الذي أشار إليه القرآن.

وقد أشار إلى مثل ذلك في الطرف المقابل وهو النار إذا لاحظنا أن ما يخشاه العاقل منهما ليس هو آلامها الحسية فحسب؛ وإنما دلالتها على الخزي والمهانة، قال تعالى في سورة آل عمران عن أولي الألباب: (رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ ومَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ (192))، وهذا هو تحقيق الحق في شأن الأجزية الدينية والفلسفية والإسلامية. (وقد توسع في موضوع الجزاء: دراز 1402هـ: ص243- 417).

• **النية والقصد**:

كثيراً ما يلتبس الأمر على بعض الناس بين أجزية العمل وثمرته ونتيجته من جهة. وهو ما يسمى بالغاية الفعلية. وبين أهداف العامل وغايته، أو نية العامل وقصده. وهو ما يسمى بالغاية القصدية. ولهذا يظنون أن وضع إحداهما هو وضع للأخرى، فكأن الإسلام يلوح للمؤمنين أن يقصدوا بأعمالهم تلك النتائج والثمرات كلها أو بعضها على التخيير، ومن هنا أخذوا يقولون: إن العمل الخلقي عند المسلم هو عمل حسابي لموازنة الربح والخسارة، وليس عملا خلقيا بريئا مجردا عن الأغراض والغايات.

وليس الأمر كما زعموا، فإن الأجزية التي قررها القرآن لا تكاد تحصى، وأما الهدف فالذي وضعه للعامل فهو هدف واحد لا تعدد فيه ولا تردد، وهو وجه الله محضاً خالصاً، وهذا تعبير قرآني عن معنى أداء الواجب لذاته الذي يتغني به الأخلاقيون، وهو معنى تجده في الآيات في مئات المواضع. وكلها تحث على الفضيلة لما لها من قيمة ذاتية، بغض النظر عن آثارها وثمرتها، على أن هذه الأجزية الكريمة التي وعد بها المتقين إنما وعد بها من كانت غايته وجه الله وحده، فهو الذي: (مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (89)) (سورة الشعراء)، وهو الذي: (مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ (33)) (سورة ق)، وهو الذي كان عمله: (في سبيل الله).

أما ما وراء هذا النية من مطامح ومطامع فهو إما رياء وسمعة ونحو ذلك، وإما مباح لا قيمة له ولا ثواب، ومن هذا النوع الأخير أن يكون هدف العامل هو الجنة وما فيها من نعيم، فلينظر كل امرئ أين يضع نفسه؟ وأين يوجه نيته وقصده (ولِكُلٍّ وجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ) (سورة البقرة). انظر للتوسع: (دراز 1417هـ: الفصل الثالث: ص 69-130).

العمل	النتيجة والثمرة والجزاء	الغاية والهدف والقصد
ضرب الولد	إيلامه	التربية والتأديب
حبس المذنب	إيلامه	التربية والتهذيب
مساعدة الفقراء	سد حاجتهم	وجه الله

محاربة العدو	قتل وإيلام	الحصول على الحق
محاربة الانحراف	عقوبات	حماية المجتمع

• الأخلاق الإسلامية أخلاق دينية:

وهكذا أصبح من الواضح أننا لا نستطيع أن نطلق على أخلاق القرآن الأخلاق الدينية بالمعنى الذي يريده الغربيون، لا من حيث الموضوع، ولا من حيث مصدر التشريع أو الأساس المسوغ له، ولا من حيث الجزاء، بعد ما تبين لنا أن الجانب الديني لا يخالط هذه الأمور إلا باعتباره عنصراً واحداً في تركيب كبير جداً.

ومع ذلك فهناك نقطة لا يظهر ولا يغلب عليها الطابع الديني فحسب؛ بل إنه يحتل كل مجال الضمير الأخلاقي، وبذلك يجعل من الممكن بل من الضروري أن نطلق على هذه الأخلاق الإسلامية لقب الأخلاق الدينية، وهذه النقطة هي النية، وهي جانب القصد، وفيها ينفرد المعنى الديني حقا بدون منازع.

إن الهدف الذي ينبغي للمؤمن الطائع أن يتوخاه ويحرص عليه في نشاطه وهو يؤدي واجبه لا يمكن في طيبات هذه الدنيا كما يقول بعض الفلاسفة، ولا في السرور الأخروي كما يقول بعض المتدينين، ولا في إشباع شعوره الخير أو إكمال وجوده الباطن، كما يقول الأخلاقيون؛ وإنما الهدف هو الله وحده، الله الذي يجب أن يكون نصب أعيينا، وأية غاية أخرى تدفع الإنسان للعمل هي في ذاتها عديمة القيمة، بل هي في ذاتها انتفاء للقيمة وعدم.

ومع هذا فلا شك أننا نخاف ونرجو، وبوسعنا أن ننشد رفاهية المادية والأخلاقية لذاتها، أو لأن هذا واجبنا أو حقنا، ولكن لا، لأن ذلك أجراً على طاعتنا. فإن ذلك لو حدث يكون على الأقل مخالفة للأخلاقية.

• الحس الأخلاقي:

تعريفه: لقد أودع الخالق العظيم في مدارك العقول، وفي مشاعر الوجدان، قوة فطرية ندرك بها فضائل الأخلاق ورذائلها، ونميز بينهما، وهذه القوة هي ما يسمى بالحس الأخلاقي.

فالإنسان في أعماق نفسه يحس بهذه القوة، وهي تحذره من فعل الشر إذا زين له، وتحاول أن تصده عن فعله، فإذا هو أصر عليه، وهم بإتيانه، أحس بعدم الارتياح أثناء الفعل، لعصيانه تلك القوة، حتى إذا أتم عمله، أخذت هذه القوة توبخه على الإتيان به، وأخذ يندم على ما فعل.

ويحس كذلك بهذه القوة وهي تأمره بفعل الخير، فإذا بدأ في عمله شجعته على الاستمرار فيه، فإذا انتهى منه شعر بارتياح وسرور.

ولهذا يشعر الناس بقبح العمل القبيح وينفرون منه، ويشعرون بحسن العمل الحسن ويرتاحون إليه، وبذلك يمدحون فاعل الخير، ويذمون فاعل الشر.

وهذه القوة المعنوية الكاشفة الهادية، الآمرة الناهية، المحذرة المحرضة، الحاكمة المنفذة، هي التي سماها علماء الأخلاق (الضمير)، أو (الوجدان)، أو (الحس الأخلاقي).. وسماها الإسلام (البصيرة)، أو (اللقب)، أو (النفس اللوامة).. وعلى هذا:

- **فالضمير:**

- قوة في النفس آمرة ناهية، تسبق العمل وتقارنه وتلحقه.
- فتسبقه بالإرشاد إلى عمل الخير والطاعة، والتحذير من عمل الشر والمعصية.
- وتقارنه بالحث على إتمام العمل الصالح والكف عن العمل السيء.
- وتلحقه بالإحساس بالارتياح والسرور عند عمل الطاعة، والإحساس بالألم والوخز عند عمل المعصية.

- **وجوده ومراحل عمله:**

وقد أرشدت النصوص الشرعية إلى:

- وجود هذه القوة في النفس (الحس الأخلاقي) أو (القلب) أو (الضمير).
- وأحالت المسلم إلى استفتاء قلبه في حكم السلوك الذي قد تميل نفسه إلى ممارسته.
- كما عرفتنا كذلك بوظائف هذه القوة وأعمالها. فهي:
- مدركة، معرفة، كاشفة، هادية، (تدرك الخير وتهدينا إليه).
- وهي آمرة، ناهية، محذرة، ومحرضة، (تأمرنا بعمل الخير وتحثنا على إتمامه، وتنهانا عن عمل الشر وتحذرنا من إتيانه).
- وهي حاكمة، ومنفذة، (تلاحق كل عمل من أعمالنا بحكمها الأخلاقي).

وهذا هو دور الضمير في داخل النفس ومراحل عمله. قال تعالى في سورة الشمس: (ونَفْسٍ ومَا سَوَّاهَا (7) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وتَقْوَاهَا (8) قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (9) وقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا (10))، فالنفس الإنسانية. منذ تكوينها وتسويتها. قد ألهمت في فطرتها إدراك طريق فجورها، وطريق تقواها، وهذا هو الحس الأخلاقي أو الضمير الذي ندرك به الخير والشر، ولذلك كان على الإنسان أن يزكي نفسه ويطهرها من الإثم حتى يظفر بالفلاح، وإلا خاب سعيه.

وقال تعالي في سورة البلد: (لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسَانَ فِي كَبَدٍ (4) أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ (5) يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُّبَدًا (6) أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ (7) أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ (8) ولِسَانًا وشَفَتَيْنِ (9) وهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ (10))، فكما أن الإنسان لديه أدوات الحس الظاهر، فكذلك لديه حس باطن يدرك به طريقي الخير والشر. وهما الطريقان الممتدان في أرض حياته الدنيا. ويختار لسلوكه ما يشاء منهما، ويتحمل بعد ذلك نتائج عمله.

وهذا الحس الباطن يشمل ما تدركه العقول بموازينها التي فطرها الله عليها، ويشمل ما تحس به الضمائر بمشاعرها الوجدانية التي فطرها الله عليها، ومن ذلك يتكون في الإنسان (الحس الأخلاقي).

فهذا هو العمل الأول للضمير، وهو عمل إدراكي. ويقول الله تعالى في سورة القيامة: (لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ القِيَامَةِ (1) ولا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ (2)) ثم قال: (بَلِ الإنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (14) ولَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ (15)).

فالإنسان لديه بصيرة، بها يستطيع محاسبة نفسه محاسبة أخلاقية، على أعماله، وعلى مقاصده من أعماله، ولومها إذا استحقت ذلك، ولو حاول في ظاهر أمره الدفاع عنها وإلقاء المعاذير. فالمحاسبة والتحذير والتنفير أو التحريض والتشجيع هي العمل الثاني للضمير، وهو عمل نزوعي سلوكي. وروي الإمام مسلم عن النواس بن سمعان رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (البر حسن الخلق والإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس)، ففي هذا الحديث دلالة على أن النفس الإنسانية فيها حس أخلاقي بالإثم، ولذلك فإن ممارسة الإثم. في العادة. يصحبها ويلحقها إحساس بالقلق والاضطراب وعدم اطمئنان النفس ويكره الآثم أن يطلع الناس على إثمه لأنه يعلم أنهم يشعرون بمثل ما يشعر وذلك بالحس الأخلاقي (الضمير) الموجود في أعماق نفوسهم.

وروى الإمام أحمد والدارمي بإسناد حسن عن وابصة بن معبد رضي الله عنه قال: أتيت رسول اله صلى الله عليه وسلم فقال: (جئت تسأل عن البر؟ قلت: نعم، فقال: استفت قلبك، البر ما اطمأنت إليه النفس، واطمأن إليه القلب، والإثم: ما حاك في النفس، وتردد في الصدر، وإن أفتاك الناس وأفتوك). وفي هذا الحديث جمع الرسول صلى الله عليه وسلم فضائل الأخلاق كلها تحت عنوان (البر)، ورذائل الأخلاق كلها تحت عنوان (الإثم)، وقد تضمن الحديث بياناً واضحاً للضمير، وذلك على الوجه الآتي:

- إذا كان الضمير سليماً من العلل والأمراض، نقياً صافياً، فإنه يستطيع أن يحس بفضائل الأخلاق ومحاسن السلوك، وأضدادها، وأن يميز بينها، ففي قول الحديث: (البر ما اطمأنت إليه النفس واطمأن إليه القلب) دليل على أن النفس الإنسانية، وكذا القلب، فيها حاسة أخلاقية تحس بها الخير والشر، والقلب أولى بذلك.

- وفي الحديث إشارة إلى مواقع الضمير فهو موجود في النفس وموجود في القلب، أو أن آثاره تظهر فيهما.

- (البر): (المفسر في الحديث السابق بأنه حسن الخلق) يفعله الإنسان السوي، وهو مطمئن للنفس، مطمئن للقلب، أما (الإثم) فإن الإنسان السوي لا يفعله إلا وهو في نفسه قلق منه، وفي صدره تردد واضطراب.

- طمأنينة النفس والقلب علامة على أن العمل هو من أعمال البر، والتردد والاضطراب فيهما وخوف اطلاع الناس على العمل. أو على الغرض منه. علامة على أنه من أعمال الإثم.

فالطمأنينة والارتياح أو القلق والتردد والاضطراب هما العمل الثالث للضمير. وهو عمل معياري مقياسي. أو بعبارة أخرى (الحكم الأخلاقي).

وهكذا فإن العمل الأخلاقي للضمير بدايته إدراك وتعريف، ونهايته حكم وتقدير، وبينهما مرحلة الحث والتحريض.. وإذا كان الحكم يرتبط بالإدراك والمعرفة فإنه يمكن أن نلحق أحدهما بالأخر، ويكون عمل الضمير هو:

- الحكم الأخلاقي.

- الحث والتحريض وما يتبعه من عمل سلوكي. فما قيمة عمل الضمير فيهما؟

• عصمة الضمير الأخلاقي خرافة:

يدعي البعض:

- أن الضمير الأخلاقي قوة فطرية معصومة بتطبيعتها.

- وأنه تبعاً لذلك يمكن الاستغناء بالضمير الأخلاقي عن الدين والإيمان.

- واتخاذه بدل الدين أساساً ومقياساً للأخلاق.

وهذا كله خطأ في خطأ.

ذلك أن شؤون الإنسان على ثلاثة أقسام:

- منها: ما لا دخل للضمير فيه كالعبادات وطرقها وتفاصيلها، فلو ترك أمرها للضمير فإما أن يبقى الإنسان متحيراً لا يفعل شيئا، وإما أن يلجأ إلى الخيال، والضمير في ذلك قاصر، ونوره ناقص يحتاج إلى التكميل.. وحكم الضمير ينقصه الشمول.

- ومنها ما للضمير فيه نور ضئيل تخالطه الأوهام، وهو مواضع الشبهات كالربا والصدق الضار والكذب النافع وغيرها، فقد يختلط عليه الأمر في بعض الأعمال ويلتبس عليه وجه الحق فيها، وقد يكون ذلك راجعاً إلى أشباه القضية الأخلاقية، وغموض مدرك الحكم فيها، وعدم ظهور وجه الحق والخير، أو إلى ضعف نور الضمير الفطري بسبب إهماله أو بسبب سوء تربيته، فتطغى عليه الأهواء والشهوات، أو العادات والتقاليد، أو تأثير القادة المضلين، أو الشياطين الموسوسين من الجن والإنس.. ولذلك ينبغي أن يتعرض لنوع من الكبح، وأن يظفر بجملة من التوجهات، وإلا فإن اليقين الأخلاقي سوف يتحول تدريجياً إلى أوهام وصنوف من الشك، وضروب من الضلال.

- وأن من يعتمد على أحكام الضمير في مجال الفرد أو في مجال المجتمع يعوزه الاطمئنان، ويقع في حيرة.. لأنه لن يجد جواباً واحداً ولا اتجاهاً واحداً.

- ففي مجال الفرد: ما واجبنا تجاه عواطفنا وغرائزنا؟ أمن الواجب ألا نستجيب لشيء من غرائزنا وشهواتنا، وأن نفرض على أنفسنا الآلام والتقشف وألوان القهر كما تقول البوذية؟ أم أنه يكفي التظاهر بنوع من اللامبالاة تجاه ضروب الخير والشر كلها في هذا العالم كما يفعل الرواقيون؟ أم أن الواجب هو أن نستجيب لملذات الحياة سواء في حكمة وانتقاء كما يقول النفعيون؟ أو بلا قاعدة ولا منهج كما يقول أصحاب مذهب السعادة؟ إنها مذاهب كثيرة..

وفي مجال المجتمع: في علاقتنا بالناس هل نعاملهم بالقصاص أم بالعفو أم بالخيار؟ بالتحفظ والعزلة أم بالمعاشرة والمخالطة؟ بالأثرة أم بالإيثار؟ إنها مذاهب كثيرة والضمائر تعارضها ضمائر.. والمرء يقع في حيرة ويتعطش إلى الاطمئنان.. وحكم الضمير في ذلك ينقصه الموضوعية.

والضمير في أحكامه متأرجح متقلب لا يستقر له قرار، فإن حكمه في المسألة الواحدة يختلف باختلاف العصور، وباختلاف الأمم في العصر الواحد، وباختلاف البيئات في الأمة الواحدة، وباختلاف الأفراد في البيئة الواحدة، تبعاً لاختلاف الأفكار والثقافات، وباختلاف الأحوال في الفرد الواحد، تبعاً لمعلوماته المتجددة، وتأثره المختلف في بيئاته المختلفة.. وهكذا حكم الضمير الأخلاقي ينقصه الثبات والاستقرار.

- ومن شؤون الإنسان البديهيات التي تتفق عليها الضمائر السوية، وفي هذا المجال حتى لو ثبت الضمير على حالة واحدة اتجاه مسألة معينة فإنه مع ذلك يتأرجح، قوة وضعفاً، واعتدالاً وشططاً، ولهذا فإن حكم الضمير لن يصلح مقياساً للأخلاق، ولن يفيد اليقين للإنسان إلا إذا اعتقد المرء أنه يعبر عن الحقيقة الخلقية في ذاتها، لا عن حقيقة نسبية تختلف باختلاف المشاعر والأفراد، والزمان والمكان، وهذا في غيبة الشرع أمر بعيد.

- فحكم الضمير الأخلاقي المجرد في العبادات ينقصه الشمول، وفي المتشابهات ينقصه الموضوعية والثبات، وفي البديهيات ينقصه اليقين، ولن يصلح بمفرده مقياساً للأخلاق.

ولقد رأينا أناساً في ظل العقل الإنساني، والضمير الإنساني، وباسمهما: يرون الإلحاد تفكيرا حسنا، والزنا عملاً عادياً، والربا قاعدة عادلة، وظلم الإنسان أو الأمم المختلفة شيئاً لا حرج فيه، واحتقار جنس ما حقاً لجنس آخر والحضارة التي تسود الشرق والغرب جميعاً وإن أغضت عن قيام فكرة الألوهية وسلمت لبعض الأتباع الحانين علياه، فهي في ظل العقل الإنساني والضمير الإنساني كما يقال: لا تسمح بامتدادها إلى خلق أو سلوك أو سياسة.

كأن الخلق والسلوك والسياسة يجب أن تعزل عن الله، لماذا؟ لا أدري!. فما قيمة عقل يصد عن الله؟ وبضمير يستسيغ ذلك الصدود؟! وهكذا فإن أحكام الضمير الأخلاقي قد تقع. بل وقعت فعلا. في أخطاء كثيرة.

ومن أوضح الأمثلة على ذلك محكمة التفتيش في إسبانيا، ففي عهد (فرديناند Ferdinand) و(إيزابيلا Isabella) ملكي إسبانيا عين مفتشون لمحاكمة من خرج على الدين الكاثوليكي من مسلمين وغيرهم، فكان يؤتي أمامهم بمن يتهم بالخروج عن الكثلكة، فإن أجاب حتى بما يتفق مع هذا الدين لم يقبلوا منه، وعذبوه حتى يضطره العذاب أن يقول ما يخالف الدين، فيأمر المفتشون بإحراقه حياً أو تعذيبه عذاباً شديدا، فكان مجموع من أحرق في السنة الأولى 208 في أشبيليا، وأكثر من 2000 في البلاد الأخرى، واتسعت سلطتهم فكانوا يتدخلون حتى في أسرار الناس، فحبسوا كل من يتهم بالزندقة، وأهملوا المتهمين في السجون ما شاءوا من غير أن يحاكموهم، وكان أخلص الناس للكثلة عرضة للتهمة، ولا

يقال للمتهم عمن اتهمه، وبذلك عذب مئات الألوف، وكان أكثر القائمين لهذا التعذيب معتقدين الحق فيما فعلوه، وأنهم يطيعون ضميرهم فيما يفعلون!. (أمين 1974م: ص 58).

فالضمير قوة فطرية حقاً ولكنها قوة غير معصومة عن الخطأ لأنها تربى وتكتسب، وما تتخذه من أحكام فإنه ثمرة لما تتلقاه من تربية وتوجيه.

- **الضمير الديني وأحكامه:**

قلنا: إن أحكام الضمير الأخلاقي. مادامت بمعزل عن الدين. ينقصها الشمول والموضوعية والثبات واليقين. ولهذا لا تصلح وحدها مقياساً للأخلاق وأن الأمر قد يختلط عليه في بعض الأمور، إما لدقة القضية الأخلاقية فلا يظهر له فيها وجه الحق والخير، وإما لضعف نوره الفطري، بسبب الإهمال أو بسبب سوء التربية.. ولذلك ينبغي أن يتعرض لنوع من الكبح، وأن يظفر بجملة من التوجيهات.

- **الضمير الديني:**

فإنه في أحكامه يستعصم بالشرع، ويكون في هيمنته دائماً، وذلك على الوجه الآتي:

- فأما الأمور التي يتضح فيها وجه الحق أي البديهيات ويكون للضمير فيها مجال واضح، وحكم حاسم، وهي الأمور التي اتفقت عليها الضمائر، ولم يختلف فيها اثنان، مثل، الصدق النافع حسن، والكذب الضار قبيح، ففي هذا النوع يجيء الشرع مقرراً الحكم الفطرة والضمير ومؤيداً..

- وأما الأمور التي يكون للضمير فيها نور ضئيل، وهي مواضع الشبهات مثل: الصدق الضار، والكذب النافع والربا.. ففي هذا النوع يجيء الشرع مقوياً لنور الفطرة والضمير، بتصحيح أخطائه، وترجيح جانب الحكمة والرشد فيه.

- وأما الأمور التي لا مدخل للضمير فيها كالعبادات فيجيء الشرع مكملاً لما فات الضمير إدراكه.

وهكذا.. فإن أحكام الضمير الديني تمتاز على أحكام الضمير الأخلاقي بالشمول والموضوعية والثبات واليقين، وبذلك أصبح له دوراً أساسياً في أخلاق الإسلام في ضوء الشرع وهيمنته، من:

- التعليل الفطري لأحكام الشريعة.

- تفصيل المجمل وبيان المبهم.

- الضمير بريد الشرع وطريق الامتثال إلى أوامره.

- الاحتياط في أمر المتشابه.

- المحاسبة في دار الجزاء.

وقد سبق بيان ذلك بالتفصيل.

- **مراتب الضمير:**

وللضمير ثلاث مراتب:

- المرتبة الأولى: الضمير الاجتماعي: وهو الشعور بضرورة عمل الواجب خوفاً من لوم الناس، وبسببه يؤدي صاحبه العمل، ولولاه ما نهجه، هذا الشعور نجده عند كثير من الناس، فبعض الجنود لا يفرون من ميدان القتال اتقاء التعيير، وكثير من الناس يصدقون حتى لا يعرف عنهم الكذب فيفقدون احترام الناس، ومنه نرى بعض الناس يبخل على أحد أقاربه بثمن الدواء لأن أحدا لا يطلع على ذلك، فإذا مات المريض بادر بالإنفاق عن سعة في مراسم الجنازة خوفا من التعيير.. وبعض الناس لا يظهر الجزع عند النازلة اتقاء الشماتة... وهكذا.

وعيب الضمير في هذه المرتبة أن صاحبه لو أمن اطلاع الناس أو لومهم وقع في الرذائل.. وكذلك لو انتقل من بيئة إلى أخرى لا يبالي، أو تعود الرذائل فإنه يأتي الشر ولا يتردد.

- المرتبة الثانية: الضمير الأخلاقي: وهو الشعور بضرورة عمل الواجب وإتباع القوانين. أخلاقية أو وضعية. سراً وجهراً. وهذا النوع أرقى من النوع الأول لأن صاحبه يلزم نفسه بالخضوع للقوانين، ولو أمن اطلاع الناس، ولو أمن العقوبة، فيؤدي الأمانة إلى أهلها ولو لم يكن عليه شهود، ويحافظ على الوعود التي يقطعها، والعقود التي يبرمها، لأن قانون الأخلاق يأمره بالوفاء، والقانون الوضعي يلزمه بتنفيذ العقد وهو خاضع لهما وأكثر الأخيار من هذا النوع.

- المرتبة الثالثة: الضمير الديني: وهي مرتبة الخاصة والمصلحين وأهل الإيمان واليقين، وهي الشعور بضرورة إتباع ما يراه حقاً ويعتقده، خالف الناس في رأيهم أم وافقهم، خالف القوانين المتعارفة عند الناس أم لا. وهذا هو أرقي أنواع الضمير، وهو الضمير الديني الذي يأمر أتباعه بإتباع ما يقضي به دينه واعتقاده مهما كلفه ذلك من الصعاب. وصاحب هذا الضمير لا يتقيد إلا بما يعتقده الحق، فينظر في القواعد والقوانين ليعرف أساس الحق فيها، فإن وصل إليه عمل به، وإن خالف الأمة كلها. (انظر: أمين 1974م: ص73 وما بعدها بتصرف).

وقد يصل الأمر بصاحب هذا الضمير إلى أن يعشق الحق، والتضحية بالنفس والمال في سبيل نصرته وتأييده. وهذه هي مرتبة الأنبياء والمصلحين والدعاة الذين يدعون الناس إلى الحق ولا يخشون في الله لومة لائم، ويعملون وفق عقيدتهم وإن عذبوا وأهينوا وماتوا...

ومنهم سحرة فرعون الذين آمنوا لما رأوا الحق مع موسى عليه السلام، قال تعالى في سورة طه عنهم وعن فرعون: (قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلافٍ ولأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ ولَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وأَبْقَى (71) قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ البَيِّنَاتِ والَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الحَيَاةَ الدُّنْيَا (72) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا ومَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ واللَّهُ خَيْرٌ وأَبْقَى (73) إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لا يَمُوتُ فِيهَا ولا يَحْيَى (74) ومَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُوْلَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ العُلَى (75) جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وذَلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّى (76))، وفي سورة

الشعراء يقول تعالى: (فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (46) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ العَالَمِينَ (47) رَبِّ مُوسَى وهَرُونَ (48) قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلافٍ ولأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (49) قَالُوا لا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ (50) إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ المؤْمِنِينَ (51)).

ومنهم ماشطة ابنة فرعون: وفي قصتها رضي الله عنها: ما أخرج ابن ماجه وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما عن أبي بن كعب رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (ليلة أسري بي وجدت ريحا طيبة، فقلت: يا جبريل، ما هذه؟ قال: هذه الماشطة وزوجها وابنها، بينما هي تمشط ابنة فرعون إذ سقط المشط من يدها، فقالت: تعس فرعون، فأخبرت أباها، وكان للمرأة ابنان وزوج، فأرسل إليهم، فراود المرأة وزوجها أن يرجعا عن دينهما، فأبيا، فقال: إني قاتلكما، فقالا: إحسان منك إلينا، إن قتلتنا أن تجعلنا في بيت، ففعل) فلما أسري برسول الله صلى الله عليه وسلم وجد ريحاً طيبة، فسأل جبريل عليه السلام فأخبره. وللتوسع في هذه القصة انظر: (تفسير البغوي 1417هـ: ج8، ص419) و(تفسير الخازن: ج6، ص260).

ومنهم امرأة فرعون آسية بنت مزاحم رضي الله عنها الذي قال الله عنها في سورة التحريم: (وضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الجَنَّةِ ونَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وعَمَلِهِ ونَجِّنِي مِنَ القَوْمِ الظَّالِمِينَ (11)) (انظر: تفسير ابن كثير 1400هـ: ج4، ص393) و(تفسير الطبري 1408هـ: ج28، ص171).

وعلى رأس أصحاب هذا الضمير الذين يعشقون الحق، والتضحية بالنفس والمال في سبيل نصرته وتأييده، ولا يخشون في الله لومة لائم، وإن عذبوا وأهينوا وماتوا.. حبيبنا وقدوتنا رسول الله محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم في جميع مواقفه، ومنها: لما هددت قريش عمه أبا طالب بالقتال إذا لم يمنع محمدا صلى الله عليه وسلم من دعوته، فقال أبو طالب: يا بني أبق علي وعلى نفسك، ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق، فقال صلى الله عليه وسلم في ثباته على الحق: (والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه) (سيرة ابن هشام: ج1، ص266، وإسناده ضعيف، ولكن رواه: البخاري في التاريخ، والطبراني في الكبير، والحاكم في المستدرك، بلفظ مقارب إسناده حسن؛ انظر: الألباني: السلسلة الصحيحة: ج1، ص/148).

فصاحب الضمير الاجتماعي يلزم نفسه أمام المجتمع، وصاحب الضمير الأخلاقي يلزم نفسه أمام نفسه، وصاحب الضمير الديني يلزم نفسه أمام دينه وعقيدته، وهذه المراتب الثلاثة للضمير بعضها يؤدي إلى بعض.

فبتربية الضمير يتدرج الإنسان في الترقي من مرتبة إلى أخرى، وأعلاها هي مرتبة الضمير الديني، و أدناها هي مرتبة الضمير الاجتماعي، وبينهما هي مرتبة الضمير الأخلاقي.

- **تربية الضمير:**

الضمير الأخلاقي ملكة للنفس، وقوة فطرية لها، وهو كباقي القوى والملكات يخضع لأصول التربية وقواعدها، وتؤثر فيه عوامل القوة والضعف والإفساد، فالإهمال يضعفه، والتربية الصالحة تنميه وتقويه، والتربية المفسدة تجعل منه جنديا من جنود شيطان الإنسان، ومؤزراً له في الوسواس والنزعات.

- **عوامل إضعاف الضمير:**

فبإهمال تربية الضمير أو عصيانه يضعف أو يموت، كمن عنده موهبة الشعر فيهمل صقلها من القراءة والتدريب فتضعف شيئاً فشيئاً ثم تموت، فكذلك الضمير يأمرك مرة بعمل من أعمال الخير فتعصي أمره وتحس بالألم الشديد اللاذع، فإذا عدت إلى عصيانه أحسست في كل مرة بألم دون الألم الذي قبله، وفي النهاية لا تشعر عند معصيته بأي نوع من أنواع الألم أو اللوم أو التأنيب لأن الضمير قد تضعف وأصبح صوته خافتا، وأمسى سلطانه ضعيفاً.

وقد جاء في شعب الإيمان ومصنف ابن أبي شيبة عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: إن الرجل ليذنب الذنب فينكت في قلبه نكته سوداء، ثم يذنب الذنب فتنكت أخرى، حتى يصير قلبه لون الشاة الربداء، إلى أن يطبع على قلبه، فذلكم الران الذي قال الله فيه في سورة المطففين: (**كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ (14)**)، ويقول الحسن: "إن بين العبد وربه قدراً معلوماً من المعاصي، فإذا بلغه لا يوفق بعده إلى خير أبداً".

وكذلك يضعف الضمير بصحبة الأشرار ومخالطتهم، أو إطالة القراءة في الكتب الهابطة أو التعرض لمثلها من وسائل الإعلام والتوجيه. وفي هذا المعنى جاء في الحديث الصحيح المتفق عليه: (إنما مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير، فحامل المسك إما أن يحذيك، وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحاً طيبة، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد ريحا خبيثة).

- **عوامل تقوية الضمير:**

ومن عوامل تقوية الضمير وتنميته دراسة فضائل الأخلاق وثمراتها العاجلة والآجلة في حياة الفرد وفي حياة المجتمع، وممارسة عواطف الخير وطاعة الضمير في حثه على ذلك، فيرقى إحساسه، ويعظم سلطانه، وكذلك المواعظ الدينية والنصائح الربانية ووسائل الترغيب والترهيب، ودراسة الكتب النافعة، وقصص البطولات الأخلاقية، والقدوة الصالحة الحسنة.

فإن كبار المصلحين في كل أمة يقوون الضمير ويزيدون في إحساسه، ويشعرون الناس بأهمية دعوتهم، فيلهبون وجدانهم بما يقولون أو يكتبون.

- **عوامل إفساد الضمير:**

وقد يتحول الضمير الأخلاقي إلى أداة للإفساد وذلك عند فساد تربيته، بأن تطغى عليه الأهواء والشهوات أو العادات والتقاليد، أو يؤثر عليه القادة المضلون، أو الشياطين الموسوسون من الإنس والجن.

وهكذا الضمير قوة فطيرة في النفس، تتأثر بما تتلقاه من معلومات، وتوجيهات وثقافة، وبعدها تكون حالتها من القوة والضعف، ومن الهداية والضلال.

• منهج التربية الإسلامية في تربية الضمير:

• أولا: تربية الضمير الأخلاقي:

وقد حرص الإسلام على تربية الضمير الأخلاقي وتهذيبه وذلك بأمرين:

- إيقاظ الضمير بتقوية شعوره بالقيمة الخلقية، وفي القرآن الكريم أكثر من ألف موضع، كلها تأمر بالفضيلة لذاتها، وما فيها من قيمة ذاتية وطهر وسمو، أو تنهى عن الرذيلة لذاتها ولما فيها من فحش وسقوط.

- كما عمل على تدريبه وتمرينه وإنارة السبيل أمامه، بعرض كثير من الأحكام الخلقية:

- في النهي عن الغيبة قال تعالى في سورة الحجرات: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ولا تَجَسَّسُوا ولا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ واتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ (12)).

وفي النهي عن الكبر والعجب قال تعالى في سورة الإسراء: (ولا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ ولَن تَبْلُغَ الجِبَالَ طُولاً (37) كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا (38)).

- وفي النهي عن الزنا قال تعالى في سورة الإسراء: (ولا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وسَاءَ سَبِيلاً (32)).

- وفي الأمر بغض البصر قال تعالي في سورة النور: (قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ ويَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (30) وقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ ويَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ولا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا ولْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ ولا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ لِبُعُولَتِهِنَّ...).

- وفي الأمر بالاحتياط والتبين قبل الحكم على الآخرين قال تعالى في سورة الحجرات: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ (6)).

- وفي الدفع بالتي هي أحسن قال تعالى في سورة فصلت: (ولا تَسْتَوِي الحَسَنَةُ ولا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (34) ومَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا ومَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (35)).

• ثانياً: تربية الضمير الاجتماعي:

كما حرص الإسلام على تربية الضمير الاجتماعي وتهذيبه وذلك بأمرين:

1- إيقاظ الضمير بتقوية شعوره بالقيمة الاجتماعية وأهمية الرأي العام:

عند الله يرفع ويخفض، كما أنه دليل على رضوان الله أو بغضه. ففي صحيح مسلم قال صلى الله عليه وسلم: (إن الله إذا أحب عبدا دعا جبريل فقال: إني أحب فلانا فأحبه، قال: فيحبه جبريل، ثم ينادي في السماء فيقول: إن الله يحب فلانا فأحبوه، فيحبه أهل السماء، قال: ثم يوضع له القبول في الأرض. وإذا أبغض عبدا دعا جبريل فقال: إني أبغض فلانا فأبغضه، قال: فيبغضه جبريل، ثم ينادي في أهل السماء: إن الله يبغض فلانا فأبغضوه، قال: فيبغضونه، ثم توضع له البغضاء في الأرض).

ويحذرنا القرآن الكريم من أحكام الرأي العام العادلة ضدنا، فيقول سبحانه في سورة البقرة: (لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلا تَخْشَوْهُمْ واخْشَوْنِي ولأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ ولَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (150)). كما بين القرآن الكريم أن نقمة الصالحين على المفسدين عقوبة تضاف إلى نقمته تعالى عليهم، قال سبحانه في سورة البقرة: (إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ البَيِّنَاتِ والْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الكِتَابِ أُوْلَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ ويَلْعَنُهُمُ اللاَّعِنُونَ (159) إِلاَّ الَذِينَ تَابُوا وأَصْلَحُوا وبَيَّنُوا فَأُوْلَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيم (160)). ثم قال: (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ومَاتُوا وهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللهِ والْمَلاَئِكَةِ والنَّاسِ أَجْمَعِينَ (161) خَالِدِينَ فِيهَا لا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ العَذَابُ ولا هُمْ يُنظَرُونَ (162)).

كما جعل ثناء الصالحين مكافأة تضم إلى ثوابه تعالى، فقال سبحانه في سورة الأحزاب: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (41) وسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وأَصِيلاً (42) هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ ومَلاَئِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا (43) تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلامٌ وأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا (44))، وقال في نفس السورة: (إِنَّ اللَّهَ ومَلاَئِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (56)).

وقد كان موقف الرسل عليهم السلام واضحاً في العناية بموقف الرأي العام:

-فإبراهيم عليه السلام يقول: (واجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ (84)) (سورة الشعراء).

- ويوسف عليه السلام: (وقَالَ المِلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ (50)) (سورة يوسف).

- والرسول صلى الله عليه وسلم: جاءت صفية بنت حُيي زوج النبي صلى الله عليه وسلم تزوره وهو معتكف في المسجد في العشر الغوابر من رمضان، فتحدثت عنده ساعة من العشاء، ثم قامت تنقلب فقام معها النبي صلى الله عليه وسلم يقلبها، حتى إذا بلغت باب المسجد الذي عند مسكن أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وسلم مر بهما رجلان من الأنصار فسلما على رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم نفذا فقال لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم: على رسلكما، إنما هي صفية بنت حُيي، قالا: سبحان الله يا رسول الله وكبر عليهما ما قال، فقال صلى الله عليه وسلم: إن الشيطان يجري من ابن آدم مبلغ الدم، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما) (رواه البخاري).

2- ثم إن ما في القرآن الكريم من سير الصالحين والمفسدين وتعليقه على قصص الصالحين والطالحين هو تغذية للرأي العام، وتدريب للضمير الاجتماعي على الحكم الرشيد.

- **ثالثا: تربية الضمير الديني:**

كما حرص الإسلام على تربية الضمير الديني وتقويته وذلك بأمرين:

- إيقاظ الضمير بتقوية شعوره بجوانب العقيدة والإيمان بالله واليوم الآخر، من قدرة الله وعلمه ونعمته ونقمته وفضلة وعدله، يمتلئ قلب المؤمن بالخوف من الله والرجاء فيه والحب له.

- تدريب الضمير على ذلك بألوان من العبادة والترغيب والترهيب مثل: قوله تعالى في سورة لقمان: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ واخْشَوْا يَوْمًا لاَّ يَجْزِي والِدٌ عَن ولَدِهِ ولا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن والِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الحَيَاةُ الدُّنْيَا ولا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الغَرُورُ (33)).

- وفي سورة الحج: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (1) يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ (2)).

- وفي سورة الحشر: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ ولْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ واتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (18) ولا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُوْلَئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ (19) لا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وأَصْحَابُ الجَنَّةِ أَصْحَابُ الجَنَّةِ هُمُ الفَائِزُونَ (20)).

- وفي سورة العنكبوت: (اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الكِتَابِ وأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ والْمُنكَرِ ولَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ واللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ (45)).

- وفي سورة البقرة: (يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ اليُسْرَ ولا يُرِيدُ بِكُمُ العُسْرَ ولِتُكْمِلُوا العِدَّةَ ولِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ ولَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (185) وإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي ولْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُم يَرْشُدُونَ (186)).

- **الأخلاق الفاضلة ضرورة في حياة الإنسان:**

الأخلاق الفاضلة ضرورة في حياة الإنسان ضرورة اجتماعية، وضرورة حضارية، وضرورة إنسانية، وضرورة دينية:

فهي ضرورة اجتماعية: بمعنى أنه لا يستغني عنها أي مجتمع من المجتمعات، فلا يمكن لأفراد المجتمع أن يعيشوا متفاهمين متعاونين سعداء ما لم تربط بينهم روابط متينة من الأخلاق الفاضلة، فإذا ضعفت هذه الأخلاق أو انعدمت تفككت الروابط في المجتمع، وتخالف أفراده وتناهموا المنافع والمصالح، وحل بينهم التفكك والدمار.

- وهي ضرورة حضارية: بمعني أن أي حضارة راشدة لا تقوم إلا على أساس الأخلاق الفاضلة، ونتساءل:

- كيف يمكن الثقة بالعلوم والأخبار والشهادات بدون فضيلة الصدق؟!

- وكيف يمكن للناس أن يعيشوا آمنين على دمائهم وأموالهم وأعراضهم دون فضيلة الأمانة؟!

- وكيف يمكن لأمة أن تبني المجد دون فضيلة الشجاعة للدفاع ضد المعتدين؟!

- وكيف يتأتي لأمة أن تبني حضارة راشدة بدون فضائل الأخوة والتعاون والمحبة والعدل؟!

- وهكذا.. كيف يمكن لإنسان أن يترقى في منازل الكمال إذا كانت تسيطر عليه الأنانية وتمنعه من البذل والعطاء؟!

- لقد علمتنا حقائق التاريخ والتجارب الإنسانية أن القوة المعنوية والأخلاق الفاضلة بينهما ترابط واطراد، وجوداً وعدماً، وقوةً وضعفاً، فإذا قويت الأخلاق قويت القوة المعنوية وهكذا.. ومن هنا قال الشاعر:

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

ذلك لأن النظم الإسلامية مثل الأسرة والقرابة والأخوة تمثل الروابط والأخلاق الفاضلة، تمثل المعاقد التي تنعقد عليها هذه الروابط.. فإذا انعدمت الأخلاق أو ضعفت انعدمت المعاقد التي تتمسك بها الروابط الاجتماعية، وتفكك المجتمع، وأصبحت الأمة التي تتكون من الملايين قوتها قوة أفراد مختلفين لا قوة أمة واحدة، واختلاف الأفراد يجعل قوتهم مضافة إلى حساب أعداء الأمة.

- وهي ضرورة إنسانية: بمعنى أن الناس لا يمكنهم أن يتمتعوا بحياة إنسانية خالصة إلا إذا تمسكوا بفضائل الأخلاق، وابتعدوا عن المعاصي والرذائل الخلقية، لأنها قاذورات، ولأنها تمسخ الفطرة الإنسانية ولا تليق بكرامة الإنسان.

- فهي قاذورات: وقد أشار الحديث الذي رواه الطبراني وورد في مسند الشاميين عن أبي أمامة رضي الله عنه (أن رجلا أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله ائذن لي في الزنا! فصاح به الناس، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: قربوه، فدنا حتى جلس بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: أتحبه لأمك؟ قال: لا، قال: وكذلك الناس لا يحبونه لأمهاتهم، فقال: أتحبه لابنتك؟ قال: لا، قال: وكذلك الناس لا يحبونه لبناتهم، لأخواتهم، فوضع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده على صدره، فقال: اللهم كفر ذنبه، وطهر قلبه، وحصن فرجه).

وفي وصية القرآن الكرم لأوصياء اليتامي قال سبحانه في سورة النساء: (وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا (9)).

– وهي تمسخ الفطرة الإنسانية وفي ذلك يقول سبحانه في سورة الأعراف: (واتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الغَاوِينَ (175) ولَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا ولَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ واتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ القَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ القَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (176) سَاءَ مَثَلاً القَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ (177) مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ المهْتَدِي ومَن يُضْلِلْ

فَأُوْلَئِكَ هُمُ الخَاسِرُونَ (178)). ويقول في سورة المائدة: (واتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا ولَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ المتَّقِينَ (27) لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ العَالَمِينَ (28) إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (29) فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الخَاسِرِينَ (30) فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا ويْلَتَى أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ (31)).

وقد روي ابن ماجه في سننه بسند صحيح عن سهل بن سعد رضي الله عنه أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول: (يكون في آخر أمتي خسف ومسخ وقذف) (السلسلة الصحيحة: ج4، ص394).

- وهي لا تليق بكرامة الإنسان: وفي ذلك قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه".

- وهي ضرورة دينية: بمعني أن الناس لا يمكنه أن يتمتعوا بحياة دينية خالصة إلا إذا تحلوا بفضائل الأخلاق، أما رذائل الأخلاق فهي معاص والإصرار على الصغيرة يجعلها كبيرة، والإصرار على الكبيرة يجعل صاحبها على خطر عظيم.

روى البخاري في صحيحيه عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب مر على أنفه فقال به هكذا) قال أبو شهاب بيده فوق أنفه.

- **موقف أعداء الإسلام من الأخلاق الإسلامية:**

- لقد عمل أعداء الإسلام على الكيد للأمة بالعمل على إفساد أخلاق المسلمين ليبعثروا قوتهم، ويفتتوا وحدتهم، واتبعوا لذلك الوسائل الآتية:

- التشكيك في العقيدة: علموا أن الإيمان بالله واليوم الآخر هو المنبع الأساسي للأخلاق فعملوا على أن يسدوا عيونه ويقطعوا شرايينه بمحاولة التشكيك في العقائد الدينية.

- المكر بالعلوم الإسلامية: وعلموا أن مصادر الشريعة وفهمهما الصحيح هو الذي يغذي الإيمان بما يتطلبه من معارف، فعملوا على المكر بالعلوم الإسلامية، من حجب لها، أو تلاعب بمفاهيمها، أو تضييق على علماء المسلمين.

- إشاعة الانحلال الخلقي: وللإفساد العملي صور كثيرة مثل تصيد المبعوثين من أبناء المسلمين، وإحاطتهم ببيئات فاسدة للتأثير على أخلاقهم، وبعد عودتهم لبلادهم أثروا في بيئاتهم، كما حاولوا التسلل إلى بلادنا عن طريق وسائل الثقافة والإعلام: القصة بأنواعها، المجلة، المواد المذاعة أو المرئية. ليفسدوا أخلاق المسلمين عن طريق عدوى البيئة أو إثارة الشهوات والفتن.

- الغزو الفكري: بالعمل على إفساد الأفكار والمفاهيم والترويج للفلسفات الباطلة عن طريق المنجزات الحضارية، وبذلك يدخلون السم في العسل.

• عناية الإسلام بتزكية النفس:

لماذا اهتم الإسلام بتزكية النفس أكثر من اهتمامه بالسلوك الظاهر؟

- لأن الأصل في السلوك الظاهر أن يكون تعبيراً صادقاً عن أحوال النفس والقلب، لكنه قد يعتريه النفاق أو الرياء فلا يعبر بصدق عن أحوال النفس والقلب. فإذا كان السلوك يخالف ما في القلب فهو النفاق، وإذا كان لا يخالفه ولكنه يقصد بالعمل إرضاء الناس فهو الرياء.

- والمراد بتزكية النفس تطهيرها من نزغات الشر وإزالة حظ الشيطان منها وتمنية الاستعداد للخير فيها فإذا تزكت النفس تهذبت طباعها، وإذا تهذبت طباعها أمكن غرس الفضائل فيها، وبذلك يصلح السلوك الظاهر والباطن جميعاً.

لماذا لا يهتم الإسلام بتهذيب السلوك الظاهر فقط؟

- لأن السلوك الظاهر قد لا يكون تعبيراً صادقاً عن أحوال النفس والقلب، فهو بناء على غير أساس، فيكون عرضة للتصدع والانهيار.

- ولأن الله تعالى في مراقبة أعمال العباد ينظر إلى قلوبهم ونفوسهم، وقد روى الإمام مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم).

- ولأن قيمة الأعمال عند الله تعالى وجزاءها عنده يكون على قدر قيمة نية الفاعلين لها، وفي البخاري قال صلى الله عليه وسلم: (إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو إلى امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه)، وفي سنن أبي داود بسند صحيح: (فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه).

- ولأن القلب هو مكان التقوى، وقد أشار الرسول صلى الله عليه وسلم إلى قلبه وقال: (التقوى ههنا) في الحديث الذي رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه.

• وسائل تزكية النفس:

1- الإيمان والعمل الصالح:

وهما الوسيلة الأهم لتزكية النفس، وفي القرآن الكريم آيات كثيرة منها:

- (وَالْعَصْرِ (1) إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (2) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (3)) (سورة العصر).

– (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (9)) (سورة يونس).

– (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ ودًّا (96)) (سورة مريم).

– (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الفِرْدَوْسِ نُزُلاً (107) خَالِدِينَ فِيهَا لا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً (108)) (سورة الكهف).

2– التقوى والبعد عن الفجور:

التقوى والبعد عن الفجور: فقد ربط القرآن الكريم تزيكة النفس بالتقوى والبعد عن الفجور وتدنيسها بالمعاصى، قال تعالى في سورة الشمس: (ونَفْسٍ ومَا سَوَّاهَا (7) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وتَقْوَاهَا (8) قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (9) وقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا (10)).

3–العمل الخالص الصادق:

العمل الخالص الصادق: قال تعالى في سورة الليل: (فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى (14) لا يَصْلاهَا إِلاَّ الأَشْقَى (15) الَّذِي كَذَّبَ وتَوَلَّى (16) وسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى (17) الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى (18) ومَا لأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَى (19) إِلاَّ ابْتِغَاءَ وجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَى (20) ولَسَوْفَ يَرْضَى (21)). وقال تعالى في سورة الكهف: (فمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا ولا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا (110)).

وفي شعب الإيمان عن معاذ بن جبل رضي الله عنه أنه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين بعثه إلى اليمن: يا رسول الله أوصني، قال: (أخلص دينك يكفيك القليل من العمل). وفي شعب الإيمان في خبر أبي هريرة رضي الله عنه: يغفر الله لأهل الإخلاص ذنوبهم، لا يتعاظم عليه ذنب أن يغفره، ولا يغفر الشرك.

4–عمل بعض الطاعات سبب في تطهير النفس من المعاصي:

عمل بعض الطاعات سبب في تطهير النفس من المعاصي: قال تعالى في سورة التوبة: (وآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحًا وآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (102) خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وتُزَكِّيهِم بِهَا وصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ واللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (103) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ ويَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (104)). وقال في سورة هود: (وأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ (114)). ومن ذلك الكفارات بكل أنواعها.

5–التربية الصالحة:

وقد كانت من مهمات الرسول صلى الله عليه وسلم تزكية نفوس أصحابه بالتربية، قال تعالى في سورة آل عمران: (لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (164)).

وفي سورة البقرة: (كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (151)).

- **موقف الإسلام من الدوافع النفسية:**

إن الإسلام لم يأمرنا بكبت الغرائز وحرمان النفس من تلبية الدوافع النفسية ولم يجعل ذلك الكبت أو الحرمان فضيلة خلقية وإنما وجهنا إلى ضبط تلبية هذه الغرائز ويتلخص الضبط:

- بتحريم ما فيه ضرر للفرد أو المجتمع.
- والترغيب بترك ما لا مصلحة فيه.
- وبالتقليل من الترف المبطر للأنفس المفسد لها.

وهذا الضرر الذي جعله الإسلام سبباً في الضبط والتحريم، إما أن يمس الدين في عقائده أو عباداته، أو يمس العقل، أو الصحة النفسية، أو الجسمية، أو يمس العرض، أو المال.. لأن حماية هذه الأمور تعرف بمقاصد الشريعة الخمسة: حفظ الدين والعقل والنفس والعرض والمال.

وتطبيق هذه الضوابط على الغرائز المتعددة يكون على الوجه الآتي:

1- غريزة طلب الطعام والشراب والملبس والمسكن:

فقد حرم الإسلام ما فيه ضرر من ذلك كشرب الخمر وأكل لحم الميتة أو الخنزير أو ما أهل لغير الله به، كما حرم لبس الذهب والحرير للرجال واتخاذ أواني الذهب والفضة ونحو ذلك وفيما عدا هذا أباح الإسلام الأطعمة والأشربة والملابس واتخاذ السكن وتأثيثة بأنواع الأثاث من غير إسراف ولا تبذير: (ولا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ ولا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا (29) إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (30)) (سورة الإسراء).

2- غريزة الجنس:

وقد أباح الإسلام الزواج بل حث عليه تلبية للغريزة الجنسية، كما جعله المتنفس الوحيد لهذه الغريزة، ولذلك حرم الزنا لما فيه من ضرر على الأنساب، وعلى المجتمع، كما حرم ما يؤدي إليه من الخلوة أو الاختلاط أو السفور أو النظرة أو التبرج وهو إبداء الزينة للأجنبي.

3- غريزة حب التملك:

كما جعل الإسلام من أسس النظام الاقتصادي صيانة الملكية الخاصة الحاصلة بطريق مشروع، وأوجب فيها حقوقاً مثل الزكاة وما يفرضه الحاكم عند الضرورة الملجئة.

4- غريزة حب الزينة وتذوق الجمال:

وقد أباح الإسلام تلبية الدافع الفطري في حب الزينة والاستمتاع بالجمال الفني إلا ما علم فيه ضرر ما، كالأوثان وتمجيد صور الأحياء أو تصويرها ووراء ذلك مباحث كثيرة.

وقد وسع الإسلام دائرة التذوق الفني كالمشاهد الطبيعية أو السياحية وغيرها.

وقد حرم الإسلام تصوير ما فيه روح إذا كانت مجسمة أو غير مجسمة ولكنها للتقديس، أو كانت فيها إثارة مثلاً، أما لعب الأطفال أو صور ما لا روح فيه، أو صورة حفيظة النفوس وغيرها من الضرورات فلا شيء فيه إن شاء الله.

5- غريزة طلب العلم والمعرفة:

وقد حث الإسلام على تلبية دافع طلب المعرفة والعلم، وأوجب طائفة ضرورية من العلم تتعلق بالدين أو خدمة الحياة الدنيا، قال صلى الله عليه وسلم: (طلب العلم فريضة على كل مسلم) (رواه ابن ماجة وقال الألباني: صحيح).

وروى أصحاب السنن بطريق صحيح وألفاظ متقاربة عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (من سلك طريقا يطلب فيه علما سلك الله به طريقا من طرق الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم، وإن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض والحيتان في جوف الماء، وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهما، ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر).

6- حب العمل:

وقد حث الإسلام على تلبية الدافع إلى العمل بل أوجب منه ما يتصل بالدين كالعبادة أو الجهاد في سبيل الله أو نشر الدعوة، أو ما يتصل بحفظ الحياة، أو حماية المجتمع، أو بناء الحضارة. قال تعالى في سورة التوبة: (وقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ والْمُؤْمِنُونَ وسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الغَيْبِ والشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (105))، وقال في سورة النساء: (فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ ومَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (74)).

وروى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله أو القائم الليل الصائم النهار).

- **الخاتمة:**
- **علاقة علم الأخلاق بالتربية:**

(التربية) من ربا يربو، إذا زاد ونما، فهي تعهد الشيء ورعايته بالزيادة والتنمية والتقوية، والأخذ به في طريق النضج والكمال الذي تؤهله له طبيعته. والتربية الإنسانية الكاملة هي التي تتناول قوى الإنسان وملكاته جميعها:

- تنمية لجسمه وحفظاً لصحته، وهذه هي التربية البدنية.
- وتقويماً للسانه وإصلاحاً لبيانه، وهذه هي التربية الأدبية.
- وتثقيفاً لعقله وتسديداً لتفكيره وأحكامه، وهي التربية العقلية.
- وتزويداً له بالمعلومات الصحيحة النافعة، وهي التربية العلمية.
- وترويضاً له على وسائل الكسب لعيشة، وهي التربية المهنية.
- وإيقاظاً لشعوره بجمال الكون ومعاونة له على التعبير عن هذا الشعور، وهي التربية الفنية.
- وتعريفا له بحق المجتمع الذي يعيش فيه وبما فيه من نظم وقوانين، وهي التربية الاجتماعية والوطنية.
- وتوسيعاً لأفق شعوره بالأخوة العالمية، وهي التربية الإنسانية.
- وتوجيهاً مستمراً لأعماله على سنن الاستقامة حتى تتكون منها العادات الصالحة والأخلاق الحميدة الراسخة، وهي التربية الخلقية.
- ثم تسامياً بروحه إلى الأفق الأعلى بإطلاق، وهي التربية الدينية.

- ولقد يذهب الظن بالناظر في هذا البسط والتقسيم إلى أن (علم الأخلاق) إنما يعني شعبة واحدة من بين هذه الشعب، وهي شعبة التربية الخلقية، وليس الأمر كما يوحي به هذا الظن، فإن سلطان الأخلاق منبسط على وجوه النشاط الإنساني كلها، لا يشذ عنه عمل تربوي ولا غير تربوي، ولا يتفاوت في حكمه نشاط بدني أو عقلي أو فني أو أدبي أو روحي، فالفنان الذي يجافي بفنه قانون الحشمة واللياقة ويهتك به ستر الحياء والعفاف يتصدى لمقت الضمير الحي، وإن لم تؤاخذه قواعد الفن، والعلم الذي يختار مادة تدريبه العقلي واللغوي للناشئين من أحاديث الرفث وأقاويل التحريض على الهجر والإثم، يسيء من حيث يحسب أنه يحسن، والمرشد الديني أو المبشر الذي يتوصل في الدعوة على دينه بوسائل الخداع والكذب، أو بشيء من الإغواء بالمال أو الجاه أو غيرهما، يرتكب جريمة من أشنع الجرائم.

وهكذا سائر أنواع التربية وشعبها، فإنها وإن اتخذت لها أهدافاً أخرى اشتقت لنفسها منها أسماء معينة، إلا أنها يجب أن تخضع في وسائلها وأساليبها وبواعثها لقواعد الآداب، وأن تقيس ذلك كله بمقاييس الفضيلة، وإنما تمتاز (التربية الأخلاقية) من بين سائر الشعب بأن هدفها القريب وغايتها المباشرة هي التدريب على السلوك الرشيد، وتكوين الخلق الحميد، فصلة علم الأخلاق بها أقوى وأقرب. فننظر في كنه هذه الصلة.

- فأما القدر الذي لا خلاف فيه فهو أن علم الأخلاق هو أول الرسائل وأولاها بعناية المربين، لأنه هو المصباح الكاشف لمسالك الرشد والغي، ولأنه هو المعيار الذي توزن به نوايا العاملين وبواعثهم، فمن صادف سبيل الهدى

مصادفة من غير قصد ولا شعور بإلزام الواجب فيه كان مثله كمثل الذي يقضى بين الناس خبط عشواء وهو جاهل بما يقضي فيه، فلا فضل له إن أصاب، بل هو أحد القاضيين اللذين في النار، كما جاء في نص الحديث الصحيح الذي رواه الترمذي في سننه عن ابن بريدة عن أبية أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (القضاة ثلاثة: قاضيان في النار وقاض في الجنة؛ رجل قضى بغير الحق فعلم ذاك فذاك في النار، وقاض لا يعلم فأهلك حقوق الناس فهو في النار، وقاض قضى بالحق فذلك في الجنة)، فالذي في الجنة رجل عرف الحق فقضى به، والذي في النار رجل قضى للناس على جهل، ورجل عرف الحق فقضى بخلافه.

- وأما القضية التي اختلفت فيها المذاهب الفلسفية منذ القدم: فهي أن العلم بالفصيلة هل يكفي في تحصيلها والتحقق بها؟ وبتعبير آخر هل علم الأخلاق وسيلة في التربية الخلقية التامة؟.

أجاب (سقراط): أن نعم، فإن من عرف أن الهدف الذي تنزع إليه فطرة الإنسان هو سعادته الحقيقية، وأن الفضيلة هي الطريق الوحيد الموصل إلى ذلك الهدف لا يمكن أن يخطئ طريقها، ولا يتصور أن يسلك أحد سبيل شقاوته وهو عالم به طائع مختار في عمله، فالأشرار وأراذل الناس لا ذنب لهم إلا جهلهم بحقيقة مقاصدهم، أو جهلهم بتحديد وسائلها، وعلاجهم إنما هو بتصحيح معلوماتهم لا بتقويم نواياهم وعزائمهم، لأنهم لا ينوون إلا خيراً لأنفسهم، ولكنهم يجهلون هوية هذا الخير، أو يجهلون وسائله، هكذا قرر مؤسس الفلسفة العلمية.

أما تلميذه (أفلاطون) فقد اختلفت عبارته، فقرر في بعض مواضع من كتبه أنه ليس بالعلم وحده يصبح المرء فاضلاً، فإن الرجل قد يعرف الشر ويأتيه، ويعرف الخير ولا يفعله، وأنه لو كانت الفضيلة تنتقل بالتعليم، كما تنتقل العلوم من عقل إلى عقل بالأدلة والبراهين؛ لاستطاع حكماء (أثينا) أن يجعلوا تلاميذهم فضلاء مثلهم، وقال في موضع آخر: إن الفضيلة التي لا تحتاج إلى تعليم إنما هي الفضيلة الفطرية الموروثة، التي لا تشعر بنفسها، أما الفضيلة الحقيقية فهي التي تعتمد على معرفة الخير ونيته.

والنصوص القرآنية تؤيد ذلك، قال تعالى في سورة الجاثية: (أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلا تَذَكَّرُونَ (23))، وقال في سورة الأعراف: (وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (175) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (176) سَاءَ مَثَلاً الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ (177) مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَن يُضْلِلْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (178)).

ومن تأمل كلا التقريرين من قول (أفلاطون) لم يجد بينهما اختلافاً، ولم يجد في واحد منهما تأييدا لقول (سقراط): إن العلم بالفضيلة كاف في تحصيلها.

على أن مؤرخي الفلسفة يميلون في تفسير هذه المقالة إلى ما أشار إليه (أفلاطون) من أنه ليس المقصود بالعلم مجرد المعرفة التلقينية، أو الإدراك العقلي الجاف، بل المعرفة التي تمتد من العقل إلى القلب، وتصبح إيماناً عميقاً، وقوة ملهمة متحمسة. قالوا: ولا ريب أن هذا الضرب من العلم كاف في نجاح التربية وإثمارها للفضيلة، حتى أن الذي يفضل السوء يبرهن بفعله على نقص في معرفته بالخير وإيمانه به.

ونحن وإن كنا نوافق على أنه المعرفة وحدها ليس لها كبير جدوى إن لم يكن لها رفد من قوة الإيمان، نرى مع ذلك أن ضم عنصرين غير كاف في تحقيق الفضيلة العملية، وأن التربية الناجحة لا غنى لها عن توافر عوامل طبيعية وعوامل إرادية، وأنه لابد لها قبل كل شيء من إزالة الموانع والعقبات من طريقها ومن أخطر هذه الموانع البيئية السيئة القذرة الضارة، التي لا ينكر أثرها في سلوك الناشئين، كما أن منها الميول المعارضة والعوائد المخالفة في سيرة الناشئ نفسه. ثم يجيء بعد ذلك عوامل إيجابية نبه عليها خاتمة المحققين من فلاسفة اليونان. ونعني به المعلم الأول (أرسطو). حين قرر أن الإنسان ليس عقلاً فحسب كما زعم (سقراط)، وليس عقلاً وعاطفة وكفى كما ظن (أفلاطون)، بل هو مع ذلك إرادة فعالة، وعزيمة نافذة، ينزعان بصاحبهما إلى عمل يبرز إلى الوجود، ويرى ضوء الحياة. فهذه واحدة.

والثانية: أن هذا العمل حين يبرز إلى الوجود لا يكفي أن يقع مرة أو مرتين بل يجب أن يتكرر ويستمر حتى يصبح عادة ثابتة، وخلقاً راسخاً، كأنه طبيعة ثابتة، فلابد إذن من رياضة وتدريب على العمل بما نعلم، وتلك هي حقيقة التربية العملية.

وأخيراً فليست الفضيلة عملاً آلياً تسخيرياً تمجه نفس فاعله، ويأباه طبعه، بل هي عمل انبعاثي محبب إلى القلب، حتى أن الذي يفعل الخير عادة ولكنه لا يجد في نفسه أريحية له، ليس خليقاً بأن يسمى خيراً..

وإننا لنجد مصداق هذه النظرات الدقيقة والسديدة في القرآن المجيد، في مثل قوله تعالى في سورة النجم: (أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى (33) وأَعْطَى قَلِيلاً وأَكْدَى (34) أَعِندَهُ عِلْمُ الغَيْبِ فَهُوَ يَرَى (35) أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى (36) وإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وفَّى (37) أَلاَّ تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى (38) وأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى (39) وأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى (40) ثُمَّ يُجْزَاهُ الجَزَاءَ الأَوْفَى (41))، وقوله في سورة التوبة: (ومِنَ الأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا ويَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ واللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (98) ومِنَ الأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ والْيَوْمِ الآخِرِ ويَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللَّهِ وصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (99))، وقوله في سورة التوبة: (ومَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلاَّ أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وبِرَسُولِهِ ولا يَأْتُونَ الصَّلاةَ إِلاَّ وهُمْ كُسَالَى ولا يُنفِقُونَ إِلاَّ وهُمْ كَارِهُونَ (54))، وقوله في سورة النساء: (إِنَّ المُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وهُوَ خَادِعُهُمْ وإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ ولا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلاَّ قَلِيلاً (142))، وقوله في سورة الحجرات: (واعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الأَمْرِ

لَعَنِتَّمْ ولَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الكُفْرَ والْفُسُوقَ والْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ (7) فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ ونِعْمَةً واللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (8)).

• المراجع:

1. ابن أبي شيبة، عبد الله بن محمد بن إبراهيم 1409هـ: مصنف ابن أبي شيبة: تحقيق: كمال يوسف الحوت، ط1، مكتبة الرشد، الرياض.
2. ابن الأثير الجزري، المبارك بن محمد 1403هـ/ 1983م: جامع الأصول في أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم: ط2، بيروت، دار الفكر.
3. ابن حنبل، أحمد 1402هـ/ 1982م: مسند أحمد بن حنبل: دار الدعوة، استانبول.
4. ابن كثير، إسماعيل 1400هـ/1980م: تفسير القرآن العظيم: ط1، دار التراث، القاهرة.
5. ابن ماجه، محمد بن يزيد القزويني 1401هـ/1981م: سنن ابن ماجه: دار الدعوة، استانبول.
6. ابن مسكويه، أبو علي أحمد بن محمد: تهذيب الأخلاق: موقع المكتبة الشاملة، قسم: الأخلاق والرقاق والأذكار.
7. ابن منظور، محمد بن مكرم (د.ت): لسان العرب: دار الفكر ودار صادر، بيروت.
8. ابن هشام (د.ت): السيرة النبوية: تحقيق: السقا وآخرون، مؤسسة علوم القرآن، بيروت.
9. أبو ريان، محمد علي 1403هـ/1983م: تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام: دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية.
10. الألباني، محمد ناصر الدين 1405هـ/ 1985م: سلسلة الأحاديث الصحيحة: ط4، المكتب الإسلامي.
11. أمين، أحمد 1974م: الأخلاق: دار الكتاب العربي، بيروت.
12. البخاري، محمد بن إسماعيل 1401هـ/ 1981م: صحيح البخاري (الجامع الصحيح): دار الدعوة، استانبول.
13. البزار، أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق بن خلاد بن عبيد الله العتكي 1409هـ/1988م: البحر الزخار المعروف بمسند البزار: تحقيق: محفوظ الرحمن زين الله: ط1، مؤسسة علوم القرآن، بيروت ومكتبة العلوم والحكم بالمدينة المنورة.
14. البغوي، أبو محمد الحسين بن مسعود 1417هـ/1997م: تفسير البغوي المسمى: معالم التنزيل في تفسير القرآن: تحقيق: النمو وآخرون، ط4، دار طيبة للنشر والتوزيع.
15. البيهقي، أحمد بن الحسين بن علي (د.ت): السنن الكبري: دار الفكر، بيروت.
16. البيهقي، أحمد بن الحسين 1410هـ/1990م: شعب الإيمان: ط1، دار الكتب العلمية، بيروت.
17. الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى 1401هـ/ 1981م: سنن الترمذي (الجامع الصحيح): دار الدعوة، استانبول.

18. جاد المولى، محمد (د.ت): الخلق الكامل: مؤسسة الرسالة ودار قتيبة، بيروت ودمشق.
19. الخازن، علي بن محمد بن إبراهيم بن عمر الشيحي: تفسير الخازن المسمى: لباب التأويل في معاني التنزيل: موقع المكتبة الشاملة.
20. دراز، محمد عبد الله (ت/1958م): دستور الأخلاق القرآن: ترجمة وتحقيق: عبد الصبور شاهين، ط4، 1402هـ/ 1982م، مؤسسة الرسالة بيروت، ودار البحوث العلمية الكويت.
21. دراز، محمد عبد الله 1417هـ/ 1996م: مختصر: دستور الأخلاق في القرآن: اختصار محمد عبد العظيم علي: ط1، دار الدعوة، الإسكندرية.
22. الدرامي، عبد الله بن عبد الرحمن 1401هـ/ 1981م: سنن الدارمي: دار الدعوة، استانبول.
23. الرازي، فخر الدين محمد 1401هـ/ 1981م: تفسير الفخر الرازي المسمى التفسير الكبير ومفاتيح الغيب: ط1، دار الفكر، بيروت.
24. زكريا، فؤاد 2004م: جمهورية أفلاطون: ط1، دار الوفاء لدنيا الطباعة، مصر.
25. الطبري، محمد بن جرير 1408هـ/ 1988م: جامع البيان عن تأويل آي القرآن: ط1، دار الفكر بيروت.
26. الغزالي، أبو حامد 1400هـ/ 1980م: إحياء علوم الدين: ط2، دار الفكر بيروت.
27. كرم، يوسف 1976م: تاريخ الفلسفة اليونانية: سقراط: ط6، مطابع الدجوي، القاهرة.
28. مسلم النيسابوري القشيري، مسلم بن الحجاج بن مسلم 1401هـ/1981م: صحيح مسلم (الجامع الصحيح): دار الدعوة، استنابول.
29. النسائي، أحمد بن شعيب الخراساني 1401هـ/1981م: سنن النسائي (السنن الكبري): دار الدعوة، استنابول.
30. الهيثمي، نور الدين علي بن أبي بكر 1402هـ/ 1982م: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد: ط3، دار الكتاب العربي، بيروت.
31. يالجن، مقداد 1406هـ/1986م: جوانب التربية الإسلامية الأساسية: ط1، مؤسسة دار الريحاني، بيروت.